A BLUE SHOE

حِذَاءٌ أَزرَق

وقصص أخرى

خالد حمدي



حِذاءٌ أزْرَق



الكتـــــاب :حذاء أزرق

المـــــؤلـــــف :خالد حمدي

تـدقيـق لغــوي: عمرو ملش

تنسيــق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: ينـــايــر 2019

رقـــم الإيـــداع : 2019/1527

978-977-6542-26-6 : I.S.B.N

المدير العام:محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

Email: P.bookjuice@yahoo.com مراسلة الدار

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

عصير الكتب للنشر والتوزيع

حِذاءُ أزْرَق

مجموعة قصصية

خالد حمدي



فهرس

القصة الأولى



«تابِيَا»

(الموريسكي الأخير)

«أما زلتَ راغبًا عن التحدُّث أيها الموريسكي؟».

ذكريات مختلِطة تنطلِق برؤوسنا بسرعةٍ مُذهلة، بعضها يمُرّ مرور الكرام، والبعض يمرُق بها كمرق السهم من الرّمِيّة، منها ما يُسعدنا حتى لنجد ثغورنا تبتسم رغم أنفسنا، ومنها ما يؤلمنا فيعترينا شعور أدناه غصَّة توجعنا وتشقينا، وأقصاه حزن يردينا لا يبقينا!

نظرتُ إليهم جميعًا مِن داخل غرفتي المعزولة ومن خلف حاجزها الزجاجي في هدوءٍ عجيب دون أن أجيب، أخفضتُ عينيّ مُتطلعًا لذلك الطعام الملقى بجواري دون اكتراث،

ورغم أنني لا أفقه كثيرًا عن تلك اللغة الغريبة التي يتحدَّثون بها، لكني فطنتُ إلى معنَاها جيدًا، وأدركتُ ماهيتها لأنها تكرَّرت مرارًا على مسامعي مؤخرًا!

عدتُ خطوتين بظهري حتى جلستُ على تلك الطاولة البلُّورية المعلَّقة في الهواء لأستلقي عليها في أريحيةٍ شابكًا كفيّ خلف رأسي ومُغمضًا عينيّ، كنت أشعر بقشعريرةٍ ما تنتابني كلما استرخيتُ فوقها لاسيَّما بملمسها الغريب!

كان ملمسًا رخوًا باردًا بشكل يتنافى مع هيئتها التي تبدُو صلبة، ويضرب بقواعد علم المعادن والمخروطات الذي تعلمناه بالصغر عرض الحائط!

ثلاثة أشهر بتوقيتهم يحاولون ويبذلون شتى الطرق لاستنطاقي ودفعي إلى التجاوُب معهم، ثلاثة أشهر مضَت وأنا هكذا بين ظهرانيهم في استكانة تامة، أمضي وقتي بينهم مُستسلمًا لتلك الفحوصات والأشعة والتحاليل عاليَة الدقة كما يبدو واضحًا، ثلاثة أشهر عكفوا فيها على دراسة كل شيء يخصني!

تحرُّكاتي،

سكناتي،

حركة انتظام أنفاسي...

الحقيقة أنهم لم يدَّخروا جهدًا لحساب كل شيء؛ سُرعة دقَّات قلبي، وحساب عدد ساعات نومي، غير الخريطة التَشريحية ثلاثية الأبعاد لكامل جسدي، حتى سرعة ارتدادة الطرف وكل أجهزتي العضوية ومعدَّلات استجابتي الحيوية لم ينسوا درَاستها كأي حيوان تجارب أليف!

كم وددتُ أن لو أوسعتُهم ضربًا

كم وددتُ لو أمكنني الهرَب والعودَة إلى دياري وموطني وكوكبي الحبيب، ولكن أي هروب أمام قوَّتهم العتيَّة سيفلح؟ لقد مات الجميع فيما عداي، ماتوا وهم يحاولون الفرار وعلمتُ وقتذاك أن مصيري المحتوم لن يكون أكثر حظًّا منهم!

لقد قالها لي أحدُهم بصوتٍ عميقٍ ونبرةٍ هادئةٍ عبر المترجم الصوتي:

- أنشطتكَ العقليَّة وتدفُّق الطاقة عبر خلاياك تشيان بأنك شخص ذكي للغاية، بل نحن نؤمن بأنك عقليَّة تختلِف عن بقيَّة بني جنسك ممن حملناهم واصطحبناهم، الذين أَبَوْا أن نضيِّفَهم واختاروا الموت على العيش معنا، لقد سخَّرنا كل سبُل العلمِ

الحديثة لدينا لنصنع لك هذا الجهاز الخاص الذي تضعه بأذنيك، ثم زوَّدناه بالكلمات والجُمَل التي تحصّلنا عليها من الآخرين، وعبر شيفرةٍ مُعقَّدةٍ للغاية استطعنا تفسير لُغتك، ومن ثمَّ تفسير لغتنا لك؛ ذلك لتيسير وتسهيل الحوار فيما بيننا، أنت تفهم الآن ما نقوله وتعلم جيدًا ما نريد، نحن نعطي لك حق الاختيار، فإما أن تمكُث وتخضع لنا بملء إرادتك فلربما أمكنك التعايش معنا، وإما عليك أن تتحمَّل تبِعات رفضك ومقاومتك البائسة!

حق الاختيار!

تباً لكَ أيها الأحمق، كيف تُخيِّرني بين ميتَتَيْن؟

بل كيف تجرَّأتَ لتسلبني أبسط حقوقي ثم وبكل وقاحة تمنحني ما ليس لك؟

سُحقًا لك ولكوكبكَ البغيض.

حينما جاءت حملتُهم الفضائية لم نكن نتصوَّر أو حتى يجول بمُخيِّلاتنا أبدًا أن تلك النظريَّات التي وضعها علماؤنا وكذا حلمهم بالانتقال عبر الزمن يمكن أن يكون حقيقة نراها رؤيا العين، فثورة العلم والتكنولوجيا التي وصلنا إليها والتي لم تتعدَّ حدود رحلات ترفيهية للتنزُّه على سطح القمر، وبعض

الرحلات المكوكيَّة لبضع كواكب قريبة لن تستطيع أن تُجابه وحدها مركبتهم الفضائية!

فما بالنا لو أتوْنا بجيشٍ جرارٍ من كوكبهم بهدف الغزو؟

كانت أعيُنهم تُراقبني عن كثب؛

يحللون،

يستنتجون،

يستنبطون ثم...

ثم مزيد من الاختبارات والفحوصات المملَّة، وبالأخير تأتي مرحلة التدوِين.. ثَمَّة تشابُه في التكوين الجسدي ملحوظ بينهم وبيننا، فرغم ضِيق أعينهم وقصر طول أهدابها - حتى ليخيَّل للناظر أنها غير موجودة - لكن ملامح وجوههم تُشبه ملامح وجوهنا إلى حدٍّ مُدهشٍ إذا ما أنصفنا المقارنة بينهم وبيننا!

لون بشرتهم داكِن، وحجم رؤوسهم أصغر من رؤوسنا قليلًا، ربما لم نحظَ الآن بتلكُم الأجساد المتينَة والمفتولة التي يمتازون بها، فالمجاعات على كوكبنا، ونقص الغذاء والماء مع كثرة اندلاع الحروب بين الشعوب والأجناس المختلفة والتي سُمَّيَت بحربِ الكون العظمى التي قامت بين قُوَّتين

عُظمتين عملتْ على تغيير بعض من خصائصنا الفيسيولوجية والوراثية، فصِرنا أكثر نحُولَةً وأكثر بُؤسًا، ولو علمنا مبدأ أن الكبير دائمًا ما يلتهِم الصغير فستبدُو الصورة أكثر وضوحًا على أرضنا.

دائمًا ما تتصارع تلك القوى من أجل تحقيق المآرب وإشباع لذَّة السيطرة والاستعباد، حتى ولو في سبيل ذلك دُمِّرت شعوب بأكملها تحت أقدامهم، أو دُمِّر الكون نفسه من أجل طموح طاغيَة آخر يحلم بسيادة الكوكب، نحن لم نحيَ في تلكُم التكنولوجيا المُذهلة التي يعيشون بها ها هنا، ولكن...

ولكننا كنا شعبًا عريقًا نمتلِك حضارةً مهَّدتْ سبُل العِلمِ والتقدُّمِ، وقدَّمتْ الكثير من الأفكار والكثير من النور!

أعلم أنكم تراقبونني وتريدون مِنِّي التحدُّث، ولكنني أرفُض أن أغدو في أعينكم مُجرَّد حيوانٍ لطيفٍ تلهُونَ به ومن ثَمَّ تتركونه لمصيرٍ أكبر طموحٍ فيه هو تمنِّي الموت، أرفض ذلك حتى لو كنتم غزاة قساة القلوب غَزوتُم كوكبي وأسرتموني.

شيء واحد نجحنا من خلاله في تحقيق السلام بين الشعوب المتناحرة،

شيء واحد كنا نسوسهم به؛

إنه الحب!

فقلوبنا أصبحت عامِرة بالحب الذي به انتهت الحروب، واخضرَّت الربوع، وحَلَّقت الطيورُ تُغرِّد في عنان السماء، وحده الحب ما فعل ذلك.

الحب؟!

فجأةً شعرتُ بها وشممتُ عِطرها العالِق بأنفي وذاكرتي!

اعتدلتُ في جلسَتي دفعةً واحدةً مُنتظرًا رؤيتها، كانت تتقدَّم في هدوءٍ وثباتٍ اعتدتُه منها، ثغرُها باسمٌ كالعادة، وجهها مشرقٌ كشمس كوكبي الدافئة.

ما أجمل عينيها الساحرتين!

ما أعذب ابتسامتها التي لطالما كانت تروي ظمأي كلما رأيتها!

اشرأبَّتْ بعُنقها لترمُقني في لطفٍ وودٍّ ملحوظين، نزلتُ مِن على الطاولة وتقدَّمتُ بهدوءٍ نحو الزجاج فأشاحتْ بوجهها عني مُرتبكةً لتتبادل النظرات مع رفقَائها وتتحدَّث معهم بلُغتهم الغريبة التي تعلَّمت منها يسيرًا، فنظروا نحوي في استهتارٍ بينما كانت ثَمَّة ابتسامة ساخرة تربَّعتْ على ثغورهم!

هي فقط مَنْ منحتُها ثقتي وأعطيتُها شيفرتي السريَّة حتى تتعامل معي، ورغم أَنها كانت تتحدَّث إليَّ باستمرار مذ أن أصبحتُ حالتها، لم أتفوَّه بكلمةٍ واحدةٍ معها، غير أنَّ هذا لم يَفت من عضدها وظلَّت تتحدَّث وتتحدَّث كأنها مُصممة على استنطاقي.

كنتُ أنظر إليها بوجهٍ خَلا من التعبير، وقلب غدا في سُرعته كبندول ساعةٍ أصابه اللوث فصار يتحرَّك ذهابًا وإيابًا بجنون.. كانوا يتابعون المؤشِّرات الخاصة بي كعادتهم، وكنتُ أعلم يقينًا أن هناك نشاطًا بدأ يظهَر على أجهزتهم الحديثة، لذا أيقنتُ وعلمتُ سبب ابتسامتهم الساخرة!

يعلمون أني أحببتُها وصرتُ مُتيمًا بها رغم اختلاف وبُعد عالَمينا اللذَين يفصلهما مئات السنين الضوئيَّة، رغم عدم معرفتي بهم وبصفاتهم الوراثيَّة، رغم عدم معرفتي كيف يتزوجون، ومن ثَمَّ كيف يتكَاثرون ويتنَاسلون!

لقد كانوا على حقٍّ تمامًا فيما استنتجوا!

لقد أحببتها بالفعل،

ولهذا يبتسمون.

وقفتُ خلف الزجاجِ أنظُر إلى عينيها في صمتٍ مُطبقٍ، أما هي فقد أمسكَت بعض الأوراق بيدها ثم تقدَّمتْ نحوي ووقفتْ أمامي مُباشرةً تنظُر بعينيها العميقتين إلى عينيّ الذابلتين رغم هُيامهما، لا يفصلني عنها سِوى بضع ملليمترات هُنَّ سُمك الحاجز الزجاجي.. لقد أمليتُ عينيّ منها، وأشبعتُ قلبي برؤيتها، وشممتُ بأنفي دماءها الزكيَّة التي تسري داخلها، فتأجَّجت مشاعري المستعرة وقد اشتعل أوارها، الأمر لم يخلُ من محاولاتٍ مُضنيَة مني لمحاولة إخفاء مشاعري ومواراتها بذلك الرابض بين أضلُعي، فخاب ظني أنني قد أنجح في ذلك!

نظرات عينيها الحييَّة أيضًا أقنعتني بغير ذلك، فقد كانت تعلم.. نعم تعلم!

ضغطتْ على ذلك الزر فانفتحت طاقةٌ من الحاجز الزجاجي كانت تكفيها لتدلف عبرَها، وقفتْ تتأمَّلني وتنظُر بعينيّ للحظات ثم ندت منها حركة توتُّر حينما حكَّت أنفها الدقيق جدًا فأوسعتُ لها الطريق حتى تمُر، جلسَتْ أمامي ووضعَتْ تلك الأوراق أمام ناظريها ثم التقطتْ ذلك الجهاز الدقيق لتضعه في أُذُنها وأشارت لي لأضع الآخر ففعلت، تنهَّدتْ وبللتْ شفتيها ثم أخذتْ نفسًا عميقًا لتتحدَّث بتلك اللغة العجيبة، وفي صوتٍ خفيضٍ لم يسمعه سوانا نقل لي الجهاز الترجمة:

- تبدُو وسيمًا اليوم!

لم تخترق الجملةُ أذُني فحسب بل اخترقت قلبي ونفذَت عبره مُباشرةً فارتفعت دقَّاته لحدٍّ مُخيفٍ شعرتُ معه بأنني في طريقي إلى الهلاك، فأطبقتُ فمي، فأردفَتْ قائلة:

- نعلم يقينًا أن كوكبكَ يسكُنه عاقلون وهذا ما أثبتته تجربة الرحلة إليه، نحن لا نريد سوى معلومات، سلاح المعرفة ودروع اتِّقاء شرور الغد، أنت تعلم أنني طبيبَة وعالِمة أؤمن بالحرية، وأؤمِن بحق الحياة، وأؤمن بالحب... الحب الذي يصنع ما لا تصنعه الأسلحة.. ثلاثة أشهر أتابعكَ بكل ذرة اهتمام بجسدي حتى وجدتُّني أذوب في معرفتكَ ذوبًا، فأصبحتَ كطفل صغير لديَّ أهتم بأمره وشئونه، بالفعل مُؤشِّراتك أثبتت بما لا يدع مجالًا للشك أنك ذكي، بل لن أبالغ حينما أخبرك أنكَ شديد الذكاء، ولكن رغم هذا نحن أكثر منكم عقلًا، وفهمًا، وتقدُّمًا و... وبطشًا!

توقَّفتْ لتلتقط نفسًا عميقًا ثم استطردَت:

- الأطماع غدَت عنوان العصر حتى أصبح الجو مُلوَّثًا، والهواء فاسدًا، والتربة نضبة، والماءُ عَكِرًا.. لقد جئتُكَ اليوم لأطلعكَ على سرٍّ عظيم؛ أتعلَم ما هو؟

كشفَ وجهي عن ابتسامة عريضَة ملأت ما بين أذُنيّ فكأنما أُخبرها:

- نعم أعلم!

فكان لها صدى عجيب!

لقد تركَ رفقاؤها ما بأيديهم حال رُؤيتهم أساريري المنبسطَة، والتفتُوا جميعًا تجَاهي يتابعون هذا التطوُّر المفاجِئ، فهذا يُعَد بمثابة أول رد فعلٍ لي من دون الجمود الذي رأَوني عليه منذ أن جئتُ معهم، أما هي فقد اتسعت عيناها في ذهولٍ وانفعال، بينما ارتعشت شفتاها لتقِف الكلمات حبيسة حلقها!

ولكن سُرعان ما عادت ملامحها إلى اللين فابتسمَت ابتسَامةً يلفُّها التوتُّر، ثم اقتربت بوجهها من وجهي واستطردت:

- حسنًا.. لقد جئتُكَ محمَّلةً بمشاعر مُختلطةٍ ومتناقضةٍ، جئتُكَ بقلبٍ ينبض فقط بكَ ولأجلِك!

لا تستنكِر هذا؛ فسهم الحب إذا انطلق لا يعرف وقتًا أو زمنًا، فقط يستقر بفؤادك ويدميه بألَم الاشتياق واللهفة.. صمتُكَ زادكَ قوة، ومثابرتُكَ زادتكَ حُسنًا وتواضعًا، لا أعلم كيف ومتى ولِمَ حدث لي هذا، ولا أعلم وماذا بعد!

سأتحمَّلُ تبعات فراقك، لتُبكيني معاناة افتقادك، وتُمزِّقني ضراوة الوحدة، لكن سيهون كل ذلك في سبيل عودتكَ لأرضكَ وشعوري وقتَئِذ أنك بأمان، سأنجيكَ مِن هذا الوضع الذي تمقته وأعيدكَ لكوكبك، لقد أعددتُّ مركبةً مجهَّزة وموجَّهة لتنقلكَ حيث موطنك، كل ما عليكَ هو ضغط الزر الأخضر، الآن عِدني أنكَ ستتذكّرني دومًا، وأعدكَ أنّ قلبي لن ينبضَ لأحدٍ سواك فلقد وهبـ...

كنتُ أتذكَّر هذه اللحظات وأنا أستعد للانطلاق عائدًا لكوكبي، فرحة العودة تُحييني بينما وجع الفراق يُميتني!

كان هناك زِرّان أمامي، فضغطتُّ زِر الانطلاق ليبدأ العد التنازلي.

لحظات وسأنطلق فلا يبعدني عن أرضي سوى عشر ثوانٍ فحسب.

اتخذتُ مجلسي وعدتُ بظهري أستنشِق هواء الحرية.

ثمان ثوانٍ.

التوتُّر يلُفّني، والقلق يُحيطني، والوجع يقتُلني و... والحب يستبِدَّ بي!

سِتُّ ثوانٍ.

تذكَّرتُ وجهها الخلاَّب، هو فقط ما كان يحتلّ رأسي، ولا أعلم لِمَ جال بخاطري حق الاختيار، ذلك الذي أخبرنيه جارها ذات يوم!

فجأةً تذكَّرتُ جزءًا مِن حديثها معي عن حِقْبَة من تاريخِهم السحيق، تحديدًا عن فصيل من جنسهم أُطلِق عليه «الموريسكيون»، لا أعلم هوِيَّتهم، وبالطبع لا أعلم مَنْ يكونوا، فقط علمتُ أن هؤلاء القوم قد فضَّلوا العيش مع هازميهم عن الخروج من البلاد!

كانت تُحدِّثني عنهم وقتذاك وهي تتطلَّع إلى وجهي بشوقٍ أقسم بروح أجدادي أنه تملَّكني وأحاطني إحاطة السِوَار بالمعصَم لاسيَّما حينما همسَتْ:

- أنت بالفعل مثل مُسلِّميهم ونحن نتعامل معك كـ...

لم يغب عن عيني تبدل ملامحها من تلك الحماسة التي تزيدُ من حُمرةِ وجنتَيها، إلى حُزنٍ مَزَّقني شرَّ ممزَّق وجعل مشاعري كأشلاء متناثرة، وخزي بدا جليًا على نظراتها الزائغة حينما أردفَت بكلمةٍ واحدة في أسَى:

- كقاهريهم!

فانتبهتُ لأمرٍ غريب!

لقد أدركتُ لماذا أطلقوا عليَّ لقب «موريسكي»!

فقد كانت تلك هي نبوءتهم حول مصيري.

ثلاث ثوانٍ..

عليَّ الاختيار الآن.. إنني...!

ثانيتان و...

ضغطتُّ سريعًا الزِر الأحمر لتتوقَّف مُحرِّكات المركبَة وتعود لوضع السكون من جديد، فأطلقتُ زفيرًا حارًّا، ثم قمتُ بفتح باب المركبة وسط عاصفة من الأتربة لأجدها تقف هناك في انفعالٍ جارف.. تقدَّمَتْ نحوي مُسرعةً وأمسكَتْ بمِرفقي وضغطَتْ عليه في قوةٍ لتُطلِق كلمتين فحسب بلغتها الغريبة المسمَّاة بالعربيَّة وبلهجة بلادها التي تُعرف بأرض الكنانة:

- ماذا فعلت؟!

أمسكتُ يدَها ودفعتُ كفَّها برفقٍ نحو جانب صدري الأيمن موضع القلب تمامًا لأتحدَّث للمرة الأولى وأقول لها كلمة واحدة بصوتي العميق وبلغة كوكبي:

- نَابِيا.

ثم انتقلتُ للُغتها وأردفتُ في حُبٍّ:

- بلغتكُم العربيَّة.. أحبكِ.

⚜ ⚜ ⚜

القصة الثانية



«حِذاءٌ أزْرَق »

بعضُ المواقفِ الغريبة والمثيرَة والتي تمُرّ بنا مُعترضةً طريقنا في تِلكُم الحياة الدنيا تستدعي الوقوف عندها طويلًا والتأمُّل فيها ملِيًا في محاولةٍ - هشَّة - لاستيعابها والاقتناع بفرضيَّة حدوثها، والغريب أنه مهما قُمنا من محاولات مُرهقة كي نصدقُها أو نؤمن بحدوثها، نجدنا قد أخفقنا في هذا، ومن ثَمَّ تتحول تلك المواقف بكل ما فيها من أحداثٍ مُخيفةٍ إلى لُغزٍ قد يرتقي لدرجة الأسرار، والتي يتوجَّب علينا وقتها أن نواريها هناك حيث أعماق الذاكرة، لا نقترب منها أو ندنُو إليها، ولا ننفَك عن الاحتفاظ بطُهرها هكذا دون أن نخدشها حتى بالتفكير فيها، أو أن نمسها بسوءٍ بإخبار البعض عنها

فتصير مُستباحة العرض لألسِنتهم كمُضغة يلوكونها بأفواههم دون استحياء.

وإرساء قاعدة عدم البوح بتلك الأسرار ليس بالضرورة أن يكون من مُنطلق عدم الثقة في البعض أو لأن البعض ليسوا أُمَناء عليها، ولكن لأنَّ هذه الأسرار قد تصل من غموضها وغرابَتها في كثير من الأوقات حَدَّ الخُرافات ـ وإلا كيف لها أن تكون لُغزًا وسرًا؟ ـ فإذا حدَّثناهم بها؛ لووا وجوهَهم عنَّا مُستنكرين، ومَطّوا شِفاههم مُتأفِّفين، وكأن حال ألسنتهم تقول:

«صَه أيها المخبول فأكذوبتكَ رخيصة جدًا ولن تَنْطَلي على مُحنَّكِين مثلنا».

ومن أجل هذا نقطع الطريق أمام تلك النظرات المستنكرة والعبارات المهترئة ونؤثرها فقط على ذاكرتنا دون التفكير في التفوُّه بها يومًا.. ولكن سُرعان ما نكتشِف أن بقاء تلك الأسرار داخل ذلك الجب السحيق دون التقاطها، والاعتناء بها ربما يُعرضها للتآكُل ثم الاختفاء وهذا ما أخشاه؛ لذا قرَّرتُ الخروج من هذه الدائرة وإلقاء الحجَر في الماء الراكد لأكسر تلك القاعدة وأحكي لكم وأسرد إحدى تلك الأسرار المكنونة!

أحداث مُخيفَة تقتحِم حياتنا فجأةً دون استئذان فتدفعنا دفعًا لخوض تلك التجربة الرهيبة أو هذه الحالة المرعبة رغمًا عنا،

الأمر أيضًا لا يخلُو من ثَمَّة فضول يصل أحيانًا لدرجة الغباء لاسيَّما حينما نُقحِم أنفسنا في خضم تلك الأهوال بلا سبب منطقي سِوى.. الفضول!

حدثَت هذه القصة معي العام الماضي تحديدًا فى فصل الشتاء.. فى بداية عامي السابع والعشرين كنت وقتها، ولم يكن ليخطر ببالي مُطلقًا أن أمُرّ يومًا بهذا الموقف الرهيب أو أن أكون طرَفًا في أحداثه، لذا أنصِتوا إليَّ جيِّدًا لأن ما سأخبركم به يتعدَّى حدود المنطق والعقل!

رفعتُ ياقة مِعطفي الصوف حتى وصل إلى منتصف أذُنيَّ طلبًا لبث بعض الدفء فيهما، كنتُ أسير على كورنيش البحر بحثًا عن بعض الهدوء والراحة النفسيَّة التي لا أجدها سوى في مدينتي الحبيبة «الإسكندرية» خاصةً أمام شاطِئ البحر المترامي، وفي ذلك الفصل المميَّز، ورغم أن الطقس بدا باردًا بشكلٍ ملحوظ وربما كان يُنذر باقتراب سحُب كثيفة، ويُنذر أيضًا بهبوب رياح قوية تُؤدِّيان لسقوط الأمطار، لكن - وعلى غير المعتاد - السماءَ بدَت صافيةً بشكلٍ كبيرٍ والقمر ظهر منيفًا كاملًا وهو يلقي بضيائه على شاطِئ البحر فتتلألأ

الأمواج وكأنها حبَّات من الفضة تنثرعلى صفحته فتعطي لوحةً طبيعية رائعة تأخُذ بالألباب وتأسر الأنفس.

كان الطريق شِبه خالٍ من المارة، وحركة السيارات أصبحت ثقيلة، والأضواء المنبعثَة من بعض المقاهي القريبة هي التي قد تشعرك ببعض الحركة كأنَّ هناك من يشاركك الطريق.

كنت أسير بمحاذاة الكورنيش في استمتاع تام أتنسَّم الهواء البارد في سعادة جمَّة بينما ترتسم على شفتيَّ ابتسامة هادئة رافعًا رأسي نحو السماء، تارة أنظر لروعة القمر وبهائه وتارة أخرى أحاول - عبثًا - حصر أعداد النجوم الزاخرة.

قفزتُ من على السور المنخفض الذي يزدان به طريق الكورنيش مُقتربًا من إحدى الكُتَل الإسمنتيَّة المكعَّبة الضخمة التي تتراص بشكلٍ عرضي بطول طريق الكورنيش ومنحدرة في وضعٍ مائلٍ منتظمٍ لتأخُذ في معظمها شكل مصاطب مدرَّجة أو كدرجات سلمية عريضة تمكننا من الهبوط عليها في سهولة حتى نصل لسطح الماء.

وضعتُ كفيَّ داخل معطفي وأنا أرفع قدمي اليسرى على تلك الكتلة ناظرًا نحو البحر في شغفٍ واضح والهواء البارد يُداعب وجهي، وبينما كنتُ ألتفِت بوجهي يمينًا ويسارًا مُتطلِّعًا

للبحر الممتد على مرمى البصر والنجوم المتناثرة هنا وهناك والتي ساعدت ظُلمة المكان في رُؤيتها بوضوح لمحتُ أمرًا غريبًا!

فقد خُيِّل لى أن ثَمَّة ذراعين يظهران بالأسفل يخرُجان من بين كُتلتين كبيرتين بحيث اختفى جسد صاحبهما كاملًا بينهما نظرًا لضخامة تلك الكتل!

كان الذراعان يتداخلان ويتشابكان في نعومةٍ وهدوءٍ وبحركات إيقاعيَّة غريبة وعجيبة بعثَتْ في نفسي بعض التوتُّر والتساؤل!

ما هذا؟

حقيقة قتلني الفضول كي أهبط بالأسفل لأتحقَّق من هذا الأمر الغريب.. نزلتُ في خفَّةٍ لم تخلُ من التوتُّر خوفًا من أن أصدر أدنى صوتٍ، حتى وصلتُ لمحاذاة الماء وجلستُ على إحدى الكتل فى حرصٍ شديد، ثم قمتُ بدفع رأسي للأمام لأرى ما هناك...

«ياللروعة!!».

أحقًا أرى ما أراه؟

أغمضتُ عينيّ بقوةٍ ثم رددتُهما مرة أخرى لأتيقَّن من أني لا أحلم!

ولم أكن أستطيع أن أحجم ذلك الاندهاش من الانتشار في كل خلايا جسَدي كالنار بالهشيم حينما تأكَّدتُ من أني مُستيقظًا ومتيقظًا وأنني أراها أمامي بالفعل!

كانت هناك فتاة في غايَة الجمال والروعَة ساعدَ ضياء القمر على رؤية وجهها الخلاب.. وقفتُ في دهشةٍ أتابعها، كانت تقِف قُرب حافة الماء تُقدِّم قدمًا عن الأخرى، تشد جذعها في مرونة إلى الأمام كالقوس رافعةً ذراعيها بتلك الحركات السالف ذكرها! صراحةً بدأ القلق ينتابني خاصةً بعد أن لمحتُ ذلك الرداء الذهبي الغريب الذي ترتديه!

رداء يبدو كقطعة واحدة مُلتصِق بها ومطرَّز برسوماتٍ عجيبة لامعَة لا يتناسب بأي حال من الأحوال مع ذلك الطقس البارد، حدَّ أنني تساءلتُ في حيرة هل هذا رداء بالفعل أم أنها عاريَة وقد طُلي جسدها بذلك اللون ووشم بتلك الرسومات؟

كنتُ مشدوهًا مأخوذًا أمام سحرها الأخَّاذ، وقد ساعد في هذا شعرها الثلجي الطويل - جدًا - الذي يُغطي رأسها وينساب من ورائها ليصل أسفل خصرها بثلاثة أشبار كاملة،

ويتطاير بفضل الرياح المرتطمة به فظننتُ أنني مازلتُ أتوهَّم!

هل هذه إحدى الجنيَّات؟

أم أنها عروس البحر؟

وبينما كنتُ أحدِّث نفسي هكذا، فجأةً وجدتُها تنظُر نحوي في قوةٍ وغضبٍ اعتليَا ملامحها، كانت المسافة التي تفصلها عنى قريبة نوعًا ما، ولا أعلم لِمَ شعرتُ بهذا الدوار ينتشِر برأسي فجأةً بعد نظرتها الغاضبة لي؟

((ما هذا هل شعرتُ فعلًا بتلك الدفعة أم أنني تعثَّرت؟))

ورغم تيقُّني التام من عدم تحرُّكي قيد أنملة حتى أتعثَّر، لكنني لسببٍ ما لا أعلم له تفسيرًا شعرتُ بدفعةٍ قويةٍ أسقطتني أرضًا!

فمن دفعني؟

لا أدري!

قمتُ سريعًا وعيني تجُوب ملابسي أنفض ما بها من تراب وهمي نتيجة سقوطي، ثم نظرتُ نحوَها و... وأصابتني دهشَة بالِغة مُقترنة بخوفٍ بدأ يسرِي في جسدي!

لم أجدها أمامي!

أي عبَثٍ هذا؟

نظرتُ حولي لعلِّي أجدها هنا أو هناك ولكن دون جدوى! ويكأنَّها تبخَّرت في الهواء أو اختفت وراء إحدى الكتل الإسمنتيَّة هذه، وربما دفعتْ بنفسها نحو الماء طلبًا للانتحار!

نعم الانتحار.. ولِمَ لا؟!

ما إن انبلجَ ذلك التفسير برأسي حتى وجدتُني أقطَعُ تلك المسافة فى خطواتٍ قليلةٍ بحثًا عنها داخل الماء لكن الأمر كان هادئًا!

عدتُ بنظري إلى الخلف فلم أجدها، وبينما كنتُ ألتهم بعيني ما حولي بحثًا عنها إذ بي أرى شيئًا آخر عجيبًا ومُدهشًا!

لقد رأيتُ حذاءً أزرق!

لا تندهشوا طويلًا، نعم رأيتُ حذاءً أزرقًا لامعًا ومُضيئًا على نفس الصخرة التي كانت تقف عليها منذ ثوانٍ! حذاءٌ غريبٌ يبدُو بلوريًا بوجود تلك الإضاءة المنبعثة منه والمنعكسَة عليه.

نظرتُ حولي مرةً أخرى لعلي أفهم أو أستوعب الأمر، ولكن هيهات! اقتربتُ بحذَرٍ نحو تلك الصخرة حتى وقفتُ عليها أنظُر لهذا الحذاء الغريب، فتنَّبهَتْ حواسي كلها وانتابت جسدي قشعريرة باردة أفقدتني الشعور بما حولي، فلم تعُد برودة الطقس تشغلني، أو ظلمة المكان تُخيفني، فقط شعرتُ بتوتُّرٍ ارتفعَت معه دقَّات قلبي بشكلٍ كبير أنساني كل شيء، حتى ودون أن ألاحظ اعتلت الصخرة التي أقِف عليها موجةٌ هائمةٌ تقدَّمت نحوى سريعًا فغمرت حذائي بالمياه لأشعر ببرودتها.. ولكن ما حدث حينها كان غريبًا بشكل زاد من مخاوفي!

فعندما تقدَّمَت المياه لتغمُر حذائي، لم تتوقَّف وإنما أخذت في التقدُّم حتى وصلَت عند هذا الحذاء الغريب، ثم التفَّت من حوله وصنعَت ما يشبه مجالًا مغناطيسيًا مُتنافرًا يبعد المياه عنه دون أن تمسه!

« إذن وراء هذا الحذاء سِر ما؟ ».

نظرتُ مرةً ثالثةً حولي غير أن الهدوء كان يسُود المكان، عدتُ بناظري نحو الحذاء في فضولٍ تامٍ، ثم دفعتُ يدي نحوَه فى توخٍّ وحذرٍ شديدين و... وتلامسَت أصابعي مع سطح الحذاء!

((إياك أن تفعلها!)).

فجأة ظهرَت أمامي بشكلٍ مُستحيلٍ حدوثه في عالمنا، ويُخالف كل القواعد والقوانين المنظّمة للعلوم الفزيائية التي تعلَّمتُها.. هكذا بدون أي مُقدِّمات وكأن العدم لفظَها نحوي!

نظرتُ إليها بخوفٍ شديدٍ عندما رأيتُها هكذا في الوقت الذي رأيتُ فيه جسدها مُرتفعًا عن الأرض ببضع سنتيمترات!.. تراجعتُ خطوةً إلى الوراء بشكل لا إرادي فتعثَّرتُ وسقطتُ أرضًا مُتألمًا بشدةٍ، وشعرتُ أن هناك جرحًا ينزِف في يدي.

((حذاري وأن تلتقطه)).

باغتَتني بإلقاء هذه العبارة التي شعرتُ فيها بصرامةٍ وقوةٍ مُخيفتين فتراجعتُ على نفس رقدَتي مصعُوقًا إلى الوراء، والحقيقة أن انفعالي ودهشَتي اللذان تملَّكا مِني ليس بسبب تلك العبارة الأخيرة فحسب؛ ولكن لأنني أُقسِم أنها لم تُحرِّك شفتيها مُطلقًا رغم كوني مُتيقِّنًا من سماعي الجملة فى وضوحٍ شديد!

كان شعرها يتطايَر مِن خلفها ومازال جسدها مرتفعًا عن سطح الأرض، تنظر لي بصرامةٍ مُخيفة!

حافيَةَ القدمَين تقِف،

مثيرة الطلَّة تبدُو،

نظراتها تتجمَّد لها الدماء فى العروق!

ورغم ملامح الصرامَة التي ارتسمَت على وجهها، لكنه مازال جذَّابًا مُحيرًا ومُلهمًا.. أعتقد أن قلبي قد توقَّف تمامًا من هَول الموقف، أسئلة تلح على رأسي وفي توقيتٍ غريب!

مَن تكون هذه الفاتنَة؟

وماذا تصنع؟

ما هذه الطقُوس الغريبَة؟

كيف ظهرَت؟ بل وأين اختفَت؟

أساحرةٌ هِي؟

لا أعلم جوابًا!

لماذا جاءني شعور يصل حَدَّ اليقين أنه لن يُخرجني مما أنا فيه سوى التخلُّص من هذا الحذاء اللعين؟! وما إن جالت الفكرةُ برأسي و...

((حذَّرتُكَ آنفا ألا تفعلها)).

إذَن هي تقرأ أفكاري!

اعتدلتُ مِن سقطَتي في حذَرٍ، فجأةً وفي سُرعةٍ دون تفكير وبعد أن تغلَّبتُ على جزء مِن مخاوفي اندفعتُ نحو الحذاء لألتقطه ـ ظنًا أنها لن تتوقَّع مِنى هذا ـ وأمسكه بكِلتا يدي في قوةٍ وأنا أخطو إلى الوراء في ترقُّبٍ وحذَرٍ، نظرتُ إليها مُجددًا فوجدتُها تتراجع في ذهولٍ وخوفٍ شديدين بديَا واضحَين على ملامحها فكأنما أمسكتُ بروحها في يدي!

((لا أرجوك.. لا تُقدِم على عمل شيءٍ لا تُدرِك عواقبه فأنتَ لا تفهم شيئًا)).

اخترقَتْ الجملةُ رأسي فرأيتُها وقد لانَت ملامحها الصارمَة ليحل محلها ملامح ألَم وقلق مُحيرة، فأوجعَتني نظرات الحُزن والأسى التي ظهرَت على وجهها فكادت توشك على البكاء، هنا شعرتُ بدغدغة كياني، وبضعفٍ يُسيطر على إرادتي، فرققتُ لحالها وبالأخير وقعت أسير جمالها الخلاب!

ترددتُ للحظةٍ أمام كل هذا، ثم أخذتُ نفسًا قويًا مشجعًا أنتوي الإقدام على عملٍ قد يكون الأخرَق على الإطلاق ولا أدري ما سيسفر عنه!

رفعتُ يديّ بمحاذاة صدري وبينهما الحذاء - ذو الملمس الرخو العجيب - دافعًا بهما نحو البحر، ثم في عزمٍ فتحتُ ما بين كفّي لينفلت الحذاء من بينهما و... وآخِر ما أتذكَّره أنها كانت تتوسَّل إليَّ وهي تبكى في ألَم لتتساقَط من عينيها دموعٌ عجيبةٌ أكاد أقسم أني رأيتُها تتحوَّل إلى قطَع بلُّوريَّة صغيرة على وجنتيها في الوقت الذي شعرتُ فيه بدفعةٍ قوية أخرى فى صدري طِرتُ على إثرها في الهواء رغمًا عني وسبحتُ عدة أمتار! فإذا بي أجدها تنطلِق نحوي في سُرعةٍ خرافيةٍ لأراها تختفي من مكانها ثم تظهر مرةً أخرى أمامي مُباشرةً لتلتقط الحذاء قبل أن يغُوص في الماء، وقبل أن أهوي داخل المياه الباردة أو أستوعب أي شيء رأيتُها تمدُّ يدَها نحوي تُحاول إنقاذي!

يقول ذلك العجوز بعد أن أفاقني أنه رآني أسقطُ في المياه وفى قبضتي مصباحًا يبدو غريبًا يشع نورًا أزرقًا، وكان في حالة دهشَة شديدة؛ حيث شاهدني أخرُج من المياه بشكلٍ مفاجِئ - وبعد لحظة واحدَة من سقُوطي - بقوَّةٍ غريبة وكأن هناك من دفعَني مِن تحت الماء!

كنتُ في حالةٍ أقرب إلى الإغماء وهو يُحدَّثني، فقام بإعطائي قطعة قماش أخرجَها من حقيبته التي يحملها وطلَب مني التجفّف بها، ثم دعا لي وهو يبتسِمُ في طيبةٍ وانصرف..

اعتدلتُ في جلستي وأنا أمسكُ برأسي في قوةٍ متحسِّسًا مكان الألم في جسدي، وما إن وضعتُ يدي على صدري حتى أصابَتني دهشة بالِغَة أدارت رأسي من جديد!

لوهلةٍ وقفتُ عن التفكير لأحاول استيعاب ما حدث وما رأيتُه!

سأعودُ بكم عدَّة ثوانٍ معدودة...

عندما وضعتُ يدي على جسدي وقمتُ بتمريرها على صدري لأتحسَّس موضِع الألم، لم أجدني مُبتلًا ولا يوجد أي أثر للماء مطلقًا على جسدي!

اتسعَت عيني في دهشة من أثر المفاجأة الغير مُنتظرة، وبدأت أفكار كثيرة تجُوب رأسي في سرعة فائقة على أمل الوصول لثمَّة فَهم أو إدراك لما رأيتُه ومررتُ به في تلك الدقائق الفائتة، نظرتُ سريعًا نحو الرجل العجوز فوجدتُه قد توقَّف على بُعد خطواتٍ مني ليستدير نحوي في هدوءٍ لأرى وجهه الودود يختفي في لحظةٍ ويحل محله وجهها هِيَ!

نعم هي بوجهها الفتَّان،

هي بوجهها الساحر،

هي بوجهها المُلهِم...

وجهها الذي رَسمَتْ عليه ابتسامة عذبةً جدًا رأيتُ فيها ما لامسَ شغاف قلبي!

ظلَّت ابتسامتها تُنير وجهها لحظاتٍ وهي ترمُقني في تفحُّصٍ ثم أمالَت برأسها قليلًا ناحيَة الجانب الأيسر وهي تمط شفتيها البلوريتين في مداعبةٍ لطيفة وبنظرةٍ هزَّت كياني بشدة، رفعَتْ يدها التي تحمل الحذاء في سعادةٍ كانت واضحة، ثم تحرَّكت شفتاها لأول مرَّة لتُسمِعني بصوتها العميق أجمل عبارة مرَّت على أذُني طوال حياتي:

- أشكركَ أيُّها الغريب لقد سَعدتُ بإنقاذي لحياتك، ربما لا تُدرك أنها كانت مُهمتي منذ البداية، يومًا ما سأعود مُجددًا لأجلكَ حتى ترُد الدين، لا تنسَ هذا.

ثم ابتسمَت ابتسامةً عذبةً أضاءت ليلي ولفحَتني بمعنى الكلمة وأصابت قلبي بسهمٍ نافِذ، ثم استطردَت:

- سأعودُ يومًا ما لأجلكَ.

واستدارَت ثم... اختفت فجأة!

عامٌ كامِل مرَّ وأنا أشعُر بإحساسٍ غريب يتملَّكني، أذهبُ كل يوم إلى نفس المكان، أنتظرها على أمَل علَّها تظهَر لي من جديد!

أصبحت حالي غير ذي قبل؛ أرى قلبي قد ذَبُل، أصابه الوهَن، كنتُ أشعُر بوجودها دائمًا بجانبي، تتطلَّع إليَّ، تهمس بأذني!

هل تراني أحببتها؟

يبدو ذلك!

هل ستظهر لي من جديد؟

ليتَها تفعل...

الآن أخبرتكُم بقصتي وأعلم يقينًا أنكم لن تُصدقوا حرفًا واحدًا مما ذكرتُ، وهذا حقًا شأنكم.. ولكن...!

ولكن دعوني أولًا أُطلِعكم على ما بحوزتي.. هذه هي قطعة القماش التي تركَتها لي، ذهبيَّة وبها تطريز غريب!

آآه هناك أيضًا هاتين!

خُصلَة كثيفة طويلة من شعرها الأبيَض اللون، وثمَّة بعض حبات بلوريَّة تأخذ شكل.. الدمعات**!**

الإسكندرية ..

شتاء ٢٠١٠



القصة الثالثة



«الآخر»

دائمًا ما نخشى المجهول...

قيل أن الإنسان عدوُ ما يجهَل وعدو ما يَكرَهُ أو ما يُكرَهُ عليه كالإتيان بأفعالٍ تتصادَم مع ما يُؤمن به.

ونتساءل دومًا في شغَفٍ شديدٍ لمعرفَة بعض الحقائق الغائبة عنا، منها - على سبيل المثال - هل حقًا نملِك حق الاختيار بين أمرَين في كل ما نواجهه أو نتعرَّض له خلال تلك الحياة الزاخرة بالمتغيرات؟

الحقيقة أنه سؤال أبَدِي لا فِكاكَ من طرحه بين حينٍ وآخر، إلا أن طبيعة الحياة دائمًا ما تثنينا عن البحث لإيجاد إجابة شافيَة لهذا السؤال!

وأحيانًا أخرى نتساءل لماذا يظهر البعض مِنَّا على غير حقيقَته؟

لطالما نسمع تلك العبارة ولا ندري ما المخفِي ورائها!

وما هو دورنا في سِباق الحياة المرير هذا؟

فنكتشِف فجأةً أن تلك الأسئلة لا إجابة قاطعة لها، ومن ثَمَّ نكتشِف أيضًا أمرًا هامًا!

فهذه الحياة التي نعيشها وباختلاف معنى الحياة - ذاتها - من شخصٍ لآخر مُجرَّد ستار غليظ قد يخفي ورائه أسرارًا مكنونة، وحياة أخرى دفينَة هى في الأصل حياتنا الحقيقية، والتي وُجِدنا من أجلها لتظهر لنا يومًا فتصعقنا بحقيقتها المفزعة التي توارَت بين حجب الذاكرة، فتتنافر عروقنا وحواسنا استعدادًا لمواجهة مخاوف تلك الحقيقة، وعلينا حينئذٍ بَذل كامل الجهد لتنفيذ بعض المهام التي ربما قد أُكرِهنا عليها، أو فقط لتنفيذ مهمة واحدة بعينها!

وقفَ في ذهولٍ تامٍ ترتعد كل فرائصه، كل مفصل من مفاصله يئِنُّ خوفًا ورُعبًا، تكاد جميع أركانه أن تنفصل عن بعضها من رهبَة الانتظار، انتظار العقاب من مجهول!

ويا له من شعورٍ مَقِيت!

شعور مُختلِط بين الترقُّب لملاقاة عدو لا يعلمه، وبين عجزٍ تام توغَّل في جسده ليجعله أقرب ما يكون لجُثَّةٍ بلا روح!

كان يتلفَّت يمينًا ويسارًا وهو يجرجر قدمَه جرًا إلى الوراء، وبخطوات ثقيلَة لا تكاد ترتفع سنتيمترات عن الأرض، حتى ارتكن إلى ذلك الحائط بعد ما أفرغ كل طاقته في العَدْو هربًا من شيء لا يعلم ما كُنهه، فوقَف يستنِد بظهره إلى ذلك الحائط وهو يلهث بشدة، لهاثٌ ارتفعت له دقَّات قلبه بشكل جنوني حتى كادت أن تُودي بحياته.. وضع كفَّيه على رُكبتيه، وهو يميل بجذعه لأسفل وثَمَّة رجَّة عنيفَة تجتاح جسدَه كاملًا!

كانت خشيَته من ذلك الخطر المجهول تتعاظم في كل لحظة رعبٍ تمُرُّ عليه مُنتظرًا فيها الصدام والمواجهة، فلم يأمَن على نفسه وجسده بهيئة الركوع تلك ناظرًا لأسفل، وفضَّل أن يظل رافعًا رأسه لأعلى ينظُر لبُقعة ما في نهاية الطريق، ثم وقف مُترنِّحًا يُقاوم الإغماء المتبدِّد في رأسه ليؤكد عزمه على لصق ظهره بذات الحائط، فما كان منه أن يترُك ظهره عُرضةً لخطرٍ قريبٍ وهو على وشَك مُلاقاته، وهكذا يُمكنه أن يلتمس بعض الأمان.

ولكن هيهات!

فأي أمانٍ هذا الذي يُمكن أن يستقيه وهو يشعُر بهم من حوله وفي كل مكان يخطو فيه؟!

يشعُر بخطواتهم المزعِجة، يسمع أشباه أصواتٍ تُحدِّثه، وكأنها تأتي من بِئرٍ سحيقة تقذِف في قلبه هَولًا يكاد أن يتوقَّف له قلبه!

كان الظلام حالِكًا في ذلك الطريق في الوقت الذي بدَا فيه خاليًا تمامًا خاصَّة في هذه الساعة المتأخِّرة من الليل.

الضباب خفيف، ولكنه يُشوش الرؤية نوعًا ما، السماء تلبَّدت بالغيوم واختفى القمر وراء بعض السحُب الكثيفَة، يظهر أحيانًا ليُلقي ضيه على الطُرقات لعدة ثوانٍ، ومن ثَمَّ تعاود السحب أدراجها لتبتلعه داخلها.

نعود إليه من جديد.. لم تكُن تلك المرَّة الأولى التي يشعر بهم يتناثرون حوله، فقد كانوا يتابعونه عن كثب...

مَنْ هُم؟

لا يعلم!

كيف يبدُون؟

لا يدري!

كثيرًا مرَّ على عقلِه هاجسٌ بأنهم أشباح ضاريَة، أو أرواح شريرة تُريد الفتكَ به، وربما يكونون أيضًا من عالم الجن!

سمع صوتًا رنَّانًا غريبًا يأتي من نهاية الطريق، ساعدت الرياح الغاضبة على نقلِه إلى أذُنه، فارتفعت دقَّات قلبه بشدَّة، وتمدَّدت حدقتاه على اتساعهما حتى كادت الدموع تنهمِر منهما خوفًا وارتياعًا، ليس هذا من أجل الصوت فحسب، وإنما من تلك اللغة الغريبة التي تناهَت إلى مسامعه وتلك الهمهمات المريعَة والمخيفة!

همهمات تردَّدت في بُطءٍ ثم أخذَت تتعالى تدريجيًا، وبشكلٍ مُخيف تقشعر له الأبدان، فشعر بوخزٍ قاتل في قلبه وغمامة بدأت تنتشِر في رأسِه.

مدَّ رأسَه إلى الأمام مُتمنِّيًا اختراق حاجز الظلام والضباب ببصره لرؤية أي شيء، ولكنه عجز عن ذلك.

لم يدرِ لماذا تذكَّر الآن حياته وما بها من أمور تحُثه على البقاء فيها والتمسُّك بها، فهناك عمله الذي يُحبه وأصدقاؤه المقرَّبون، وهناك أيضًا «روعة» حبيبته التي من أجلها تمسَّك بالحياة.. إلا أن هناك إحساسًا قويًا يُسيطر عليه، إحساسٌ وصلَ حد اليقين يُخبره أنها النهاية، نهاية حياته الهادئة، التي

لم يتخلَّلها أي نوعٍ من أنواع الأذى لبشَر والتي لم يقترف بها إثمًا تجاه أحد.

فجأةً سمع صوت خطوات تقترِب منه في سُرعةٍ فانتفض وهو ينظُر على يمينه و...

- «ميياااااو».

- تبًّا لكِ أيتها الهرَّة اللعينة، ما سبب خروجك في هذا الجو الكئيب؟!

كاد قلبه يتمزَّق من مَنبَته مع صوت تلك الهِرَّة المزعجة التي مرَّت أمامه مباشرة، فأطلق تلك العبارة في سخطٍ، ثم وضع يدَه على قلبه في قوة ليتأكَّد أنه ما زال على قيد الحياة.

كم تمنَّى أن يغمِض عينيه ويفتحهما ليجد كل شيء قد انتهى من حوله، وكأنه كان يعيش داخل كابوس مُخيف انتهى فور فتحه لعينيه.. لم ينتظر طويلًا ونفذ على الفور! أخذَ نفسًا عميقًا وهو يُغلق عينيه، فأبقاهما لحظةً واحدةً ثم ردَّ الطرف عنهما مرةً أخرى.

«لِمَ أنتَ خائف يا «صائد»؟ لم نعهدكَ مُرتاعًا هكذا من قَبل!».

إن ودَّ «دافنشي» أن يُبدِع لوحةً فنيَّةً لوجه رجُل مذعُور ما وجدَ أنسَب من وجهه في هذه اللحظة لينقِله على لوحَته! فكأنما رأى أبشَع كوابيسه تتحقَّق أمامه، فقد زاغت عيناه حتى أوشك على السقوط في غيبوبة عميقة، جسده تيبَّس كاملًا، الكلمات اختفَت من حلقِه فظلَّ يُجاهد لدفع بعض الهواء ليُساعده على التنفُّس!

وقف ذلك الرجل قبالته عاقدًا ساعديه أمام صدره، ويبتسم إليه في هدوءٍ ساخر، لم يُدرِك كيف ظهر، وكأنما انبلج من العدم! ودَّ حينها لو أمكنه التراجُع إلى الخلف واختراق ذلك الجدار، أو أن تنشق الأرض وتبتلِعه داخلها، فخرجت الكلمات من حلقه رغمًا عنه في رُعبٍ شديدٍ قائلًا:

- من أنت؟ وماذا تُريد؟ ومن صائِد هذا؟

مطَّ شفتيه في دهشةٍ مُصطنعَة ثم قال ساخرًا ليزيد الأمر غموضًا:

- ألا تتذكَّرني يا رجـ... يا رجل؟

فتَّش في خبايا ذاكِرته لعله يتذكَّر هذا الوجه، ولكنه لم يعرفه بالفعل أو حتى رآه من قبل، فقال له في تردُّد يشُوبه بعض الخوف:

- هل التقينا من قبل؟ لا.. لا أعتقِد هذا فوجهكَ غير مألُوف لي.

صمتَ بُرهةً ثم أكمل في محاولةٍ هشَّة لتصنُّع القوة:

- هيا أخبرني مَنْ أنت، وماذا تريد قبل أن...

لم يجد ما يُضيفه، فرغمًا عنه خرج صوته واهنًا ضعيفًا ولم تُقنعه تلك اللهجة أن بمقدرته الخروج من هذا المأزِق، فأطبق شفتَيه في حَنَقٍ ولزم الصمت.

نظر له ذلك الرجل، واتسعت ابتسامَة السُخرية على شفَتَيه وهو يقول:

- وماذا ستفعل؟! هل ستصرُخ وتعوِي مثلهم طالبًا الغوث منهم، أقصد من بني البشر، سُكَّان هذه الأرض؟ أم ستُهاجمني بذلك الخوف الذي أراه واضحًا في عينيك؟

أطلقَ ضحكةً غريبةً ثم أكمل:

- يبدو أنكَ قد نسيت مَنْ أنت! ولِمَ التعجُّب فأنت حقًا لا تدري ما كونك ولماذا أنت هنا.

قال - صائد - في دهشةٍ احتلَّت وجهه:

- كلامك غريب يا هذا وثَمَّة غموض لا أستطيع فَك طلاسِمه، تُحدِّثني عن البشَر بسُخرية واحتقار لكأنك لستَ منهم، وخاطبتَني باسم غير اسمي، والأدهَى أنكَ إلى الآن لَم تُؤذِني؟

قال في صَرامةٍ:

- أؤذيك! كم أنتَ واهِم يا «صائد»، لقد أمضيتَ هنا قرابة العشرة أعوام تحيَا في سلامٍ واطمئنان دون معرفَة حقيقتك التي أُرسلتَ من أجلها.

توقَّف للحظةٍ ثم استطرد:

- نحن نُراقبك عن كَثبٍ طوال تلك الفترة، نحاول دعمَك وتوجيهكَ ولكنَّكَ كُنتَ تسير وفقًا لمخططنا بمنتهى الانضباط والالتزام، ذلك المخطط الذي قُمنا بإعداده منذ أعوام طوال حتى جاءت اللحظة الحاسمة.

لم تتغيَّر ملامح الدهشة على وجهه، وكل ذرةٍ في جسده تستنكِر هذا السخف ولا تستوعِب ذلك الحوار، فأطلق زفيرًا قويًا ثم قال في حِدَّةٍ:

- هذا هو الهراء بعينه، فعلامَ ترمي يا هذا؟ تُحدِّثني وكأنني غريب عن هذه الأرض، والحقيقة أن ما تقوله لا يتعدَّى كونه

قصةً كرتونيَّةً ساذجة يقرؤها طلاب المرحلة الابتدائية ليتضاحكوا عليها!

صمتَ بُرهةً ثم أطلق ضحكةً يُنفث بها عن توتُّره مُستكملًا:

- أشمُّ رائحة المزاح في حوارك.. أتريد أن تُقنعني أنني من عالَم آخر كعالم الجن مثلًا أو من سُكَّان إحدى الكواكب العامرة بالمخلوقات الحيَّة ونحن في القرن الحادي والعشرين هههههههه، كم ستصير ساذجًا لو توهَّمتَ للحظةٍ أن بإمكانك إقناعي بهذا الخبَل، فإما أنني أحلم أو أنك مُختل عقليًا.. والحق أقول أنا أزكِّي الثانيَة!

أجابه باقتضابٍ وفي هدوءٍ ساخر:

- أتستنكِر هذا؟

- نعم.

- وماذا عن ظهوري المفاجِئ لك؟

- الظلام دامس، فلربما كنت تنتظِرني!

- ولماذا أنتظرك؟

- لا أدري، ربما يكون مزاحًا ثقيلًا أو مقلَبًا مُحكمًا من شخصٍ يُبغضني، تمامًا كالبرامج التي أراها تعج بها شاشة التلفاز.

- وماذا عن حبيبتك.. « روعة »؟ صدِّقني يا صديقي نحن نعرف عنكَ ما لم تعرفه أنت.

قال في إصرار:

- هُراء.

في نفاذ صبرٍ قال:

- أنصِت إليَّ جيِّدًا يا « صائد »، فكلامي هذا لن أكرره على مسامعكَ مرةً أخرى...

منذ سنين طويلة ونحنُ نُراقب عالَمَ البشر، نُراقب تصرُّفاتهم وحياتهم وكل ما يفعلونه من آثام وجرائم تُسمى بمفاهيمهم « جرائم إنسانية »، حروب طويلة وطاحِنَة اصطنعُوها من أجل فَرض السيطرَة والقوَّة، فخاضوها واستباحُوا أرواح وأعراض ملايين البشر من بني جلدتهم لمجرَّد حلم سخيف لحاكم مجنون، أو رُؤية فاسِدَة لقائد سادي ومن أجل أهداف هي في الأصل تتعارَض مع ما يُؤمنون به من حق في الحياة والحُريَّة والأرض.. حروبٌ تضافرَت فيها

قُوى الشر جميعًا من أجل إذلال الشعوب الضعيفَة، واستغلال مقدراتهم وثرواتهم...

توقَّف ينظر لـ «صائد» الذي تملَّكته حالة من الخوف والرهبَة ثم استكمل:

- وأنت يا «صائد» أعظَم قادَتنا في عالمنا الخاص والفرِيد، ذلك العالم الذي لا تتخلَّله تلك المشاعر المقيتَة، وأنت الذي وضعتَ تلك الخطَّة وضحَّيتَ بمكانتك وحياتك من أجل تحقيق مآربنا وأهدافنا لغزو هذا الكوكب السخيف، ألا ترى تلك العلاقات التي يتبادلُونها فيما بينهم والتي يتخلَّلها بعض الصفات الموجودة في دمائهم؛ كالنفاق والكذب والحقد والغيرة؟! هم لا يُقدِّرون تلك الحياة التي يَحيَونها والتي لا يستحقونها.. جيشنا الجرَّار على أهبة الاستعداد، مُزوَّد بالعدة والعتاد مُترقِّب لحظة الغزو وساعة الحسم، لقد زوَّدناكَ ببرامج مُتطوِّرة للغاية لن يعرفها البشَر قبل مرور قرون طويلة، فصنعنا في ذاكرتك حياة أخرى، تشملها مشاعر هؤلاء البشر ولكننا اخترنا لك مشاعر حميدَة كالصَفْح والمحبَّة فصرت تُفكِّر مثلهم وتحيا مثلهم و... وتُحِب مثلهم! ولكنك لن تكون سوى «صائد»، ذلك القائد الفذ الذي يختار فريسَته، وينقَضّ عليها لاصطيادها ثم السيطرة عليها.

استقبل «صائد» ذلك الحوار في صمتٍ مُطبَقٍ وهو يراجع ذلك الحديث في إنصاتٍ شديد، ثم نظرَ له في صرامةٍ شديدة قائلًا:

- رغم تلك التُرَّهات والهلاوِس التي أسمعها منك إلا أنني سأجاريك وأصدقِّك.

ثم صمتَ ونظرَ في عينيه مُكملًا:

- لكن بشرطٍ واحد.

نظرَ له مُحدِثه في هدوءٍ تامٍ ثم قال:

- تريد الدليل على صِحَّة كلامي.. أليس كذلك؟

في هدوءٍ قال:

- نعم.

أطلقَ ضحكةً يشُوبها صوتٌ رنَّانٌ وقال:

- سآتيك به فورًا.. ألم تلاحظ يا صديقي تلك اللغة التي أحدِّثكَ بها؟! ألم تسأل نفسك كيف تفهمها!

اقشعرَّ جسَد «صائد» وأصابَته دهشَة بالِغَة، وحيرَة حقيقيَّة وهو يكتشف تلك الحقيقة العجيبة؛ فلغة مُحدِّثه غريبة بالفعل ولم يسمعها من قبل!

همَّ بقول شيءٍ ما فقاطعَه مُحدِّثه:

- لا تجعَل الدهشة تَفْتك بكَ يا صديقي، فأنا «حارس» صديقك الوفي وذراعك الأيمَن، فالدهشة ستكون عظيمة حينما تكتشِف أيضًا أنك لم تفهم لُغتي فحسب، وإنما تحدَّثتَ معي بذات اللغة!

هنا لم تعُد قدمَا «صائد» تستطيعان حمله، فسقطَ على رُكبتيه وثَمَّة دموع تتساقَط من عينيه؛ فبالفعل كان يتحدث معه بنفس اللغة!

مدَّ «حارس» له يدَه وقال:

- لا تجعل المظاهر تخدعك، فلا معنى لتلك الدموعَ البشريَّة فنحن لا نعرفها في عالمنا المثالي، وإنما هو برنامج مزروع داخلك مثلها مثل المشاعر البشريَّة التي زرعناها برأسك!

هدأَت الرياح عن زأرها، وتوقَّف الزمنُ بـ «صائد» في الوقت الذي انسابَ في المكان بُخار وردِيّ اللون سطعت معه بعض الومضات، وظهر في نفس المكان بعض الشرر

المصحوب بصوت احتكاك كهربائي لتُفتح طاقة يظهر داخلها ممَرٌّ طويل هائل احتشدت فيه قوات ذلك العالم المخيف.. فأمسك «حارس» بكتف «صائد» ليُوقفه، ثم أخرج مِن بين يديه جهازًا صغيرًا أقرب للصاعق الكهربائي فوضعه في يده، ثم أخرج آلةً حادةً عريضةً أشبه بسكينٍ كبير قذفه عند قدمه وقال في ودٍ واحترامٍ بالغين:

- ما عليك يا سيدي سوى صعق نفسك عند موضع القلب بهذا الجهاز لتستعيد ذاكرتك دفعة واحدة وعندئذ سينتهي كل شيء وتعلم حقيقتك وحقيقة مهمتك.. هيا أسرع، فالقوات على المحك ينتظرون إشارة البدء لينسلوا عبر بوابتنا الكونية! هيا قبل أن تُغلق بوابة الزمن ويطيش حلمنا سويًا ويضيع أملنا وأمل عالمنا في الغزو.. ثم تركه وانطلق يعدو في آلية نحو البوابة، وفي مشهدٍ مهيب يجمد الدماء في العروق وقبل أن يصل إليها بعشرين مترًا وثب وثبةً هائلةً جدًا ومُدهشة للغاية، وكأنما طار سابحًا في الهواء ليقطع هذه المسافة بتلك القفزة ليصل عند حافتها، فتوقف لحظة ثم أدار وجهه للوراء ينظر لـ « صائد » في حزمٍ وصرامة، وعاد به مرة أخرى ليخترق البوابة في قوة متوقفًا أمام ذلك الجيش الجرار وبدأ في توجيه تعليماته لهم وبذلك الصوت المخيف، في الوقت الذي أخذ

جسده يتماوج بشكل انسيابي هادئ ليظهر من تحت ذلك الوجه وذلك الجسد شكل آخر مخيف وقاس!

نظر « صائد » له في هدوءٍ واستسلامٍ وشريط ذكرياته - الأرضية - ينطلق بسرعة خرافية، وفي ثوانٍ معدودة تذكر حياته كاملة حتى توقفت الصورة عندها..

«روعة »...

لكم يشتاق لها الآن!

نظر في خضوعٍ لذلك الجهاز الذي بين يديه ثم لتلك السكين الراقدة على الأرض بجواره، وللحظة توقف عقله عن التفكير، لا يدري ماذا يصنع فهناك صراع مقترن بشيء مجهول داخله يخبره أنما تلك هي الحقيقة! فما يراه الآن هو جزء من حقيقته الكامنة وإن لم يكن يصدقها! جزء من حياة قاسية غابت عنه لسنواتٍ عديدة وتناساها عن غير إرادته، لذلك لم يحتج مجهودًا ووقتًا لحسم الأمر، فأخذ القرار سريعًا..

نظر نحو « حارس » الذي دلف عبر البوابة واقفًا وسط مقاتليه المدججين بأسلحتهم الفتاكة يوجِّه لهم تعليماته، فأمسك الجهاز بأصابعه ورفعه أمام عينيه يتأمله في هدوءٍ ثم أخفضه

مرة أخرى بمحاذاة قلبه مباشرة، وأخذ يقربه حتى لمس صدره و...

وأطلق تلك الصاعقة لتنتفض كل ذرة من خلاياه بشدة، فأخذ جسده ينتفض وينتفض حتى تذكر كل شيء فجأة!

نعم هو ذلك القائد الأسطوري الذي جاب أكوانًا وعوالم عديدة، تذكر رحلته، وخطته، وتضحيته وتذكر هدفه...

الأرض!

مال بجذعه إلى أسفل بزاوية مستحيلة ليلتقط ذلك السكين ويعود به مرة أخرى، وهناك نظرة مخيفة ملأت وجهه خاصة وهو يدني ذلك السكين من جبهته ويبدأ في عمل شيء بشع ومريع!

فقد غرز نصل السكين في جبهته دون اكتراث، وبدأ في تقطيع لحم وجهه في هدوءٍ مخيف وثبات غير بشري، لتنعكس صورة وجهه الحقيقي على سطح السكين اللامع ويرى حقيقته!

مجرد قائد لعالم قاسٍ ومخيف،

مجرد كائن ليس لديه أدنى مشاعر إنسانية،

مجرد شيء آخر لحياة أخرى،

مجرد إنسان آلي و...

وبدأ الغزو!



القصة الرابعة



«ضعف نظَر»

لم أكُن أؤمِن بالحبِّ من أوَّلِ نظرَة!

لا تتوقَّفوا كثيرًا أمام تلك الجملة أو تنتابكُم الدهشَة لصراحتي هذه، فإيماني بهذا المعتقد ورفضِي التام لفكرة الوقوع أسيرًا في هوَى فتاةٍ ومِن أول وهلَة لا يبدُو غريبًا ولا مُختلفًا عن مُعتقد بقيَّة أقراني من البشَر!

لأنه ببساطة شديدة وفي وضوحٍ تام مُجرَّد وَهمٍ، أعتقِد أنه لا يوجد ما يُسمى بالحب من أولِ نظرة، نعم هناك الحب الأول وهذا أمرٌ قائم لا فرار منه، ولا يوجد من وسيلَةٍ لتجنُّب الوقوع فيه فمَنْ مِنَّا لم يقع تحت براثنه؟

ولم أكن أنا ذلك الغرّ الساذج الذي ينخَدع بتلك العفوية - المخجلة - أمام نعومَة أو مَكر إحداهن فيصير مُعذَّبًا في هواها

أو مُتيمًا بجمالِها، كما إنني والحق يقال وبلا فَخرٍ أو كِبر لستُ ذلك الطائر مهيض الجناح الذي يقع فريسةً سهلةً في شباك صائدٍ مِثْلِه ممن يُزاول الشَرَّ فنًا، فأسقُطُ مخدوعًا إثر كلمة معسُولَة أسمعها، أو ابتسامة عابرَة ألمحها، وإنما دومًا أبحث عن الكمال في كل شيء، حتى حياتي رغم رتابتها التي تصل أحيانًا حَدَّ الملَل القاتِل أراها في كثيرٍ من الوقت كاملَةً وتتخلَّلها نسائمٌ عطرة قد ساعدت في تكوين شخصيَّتي المُركَّبة.. نعم مُركبة ولا أبالغ إن قلتُ أنها تغدُو معقَّدة في بعض الأحيان؛ لأني رغم كل تلك القناعات التي أؤمِن بها أحمل قلبًا فيَّاضًا مفعمًا بالمشاعر، قلبٌ يزخَر بأرَق وأعذب معاني الحب والسلوان فأكون قد جمعتُ النقيضين.

ولستُ أبالِغ إن قلتُ أني شخص غزير المشاعر فيَّاض الأحاسيس لأبعَد حدٍّ مُمكِن أن يتخيَّله عقل أو يستوعِبه قلب، فأصبحتُ أشرب من ترياق الحب أنهارًا، وأقتاتُ من ثماره الناضجة ألوانًا، وأتحدَّث من قوامِيسه وقصصه ما يكفي لتدوين مُجلَّدات ومراجع عدَّة بلا توقُّف أو كلَل.. فيا لي من شخصٍ فريد، شخص يضَع نفسه في مُقدِّمة قائمة العاشقين والمحبِّين والمتيَّمين.

أستمتع كثيرًا حينما أرى نظرات الخجل تملأ وجه إحداهن وهي تسير مُتأبطة ذراع فارسها الذي تملأه نظرات الحب والحنان.. وكم أغبطهما!

عندما حدَّثني أحدُ الأصدقاء عن انغماسه في حب فتاة سمراء تفُوح منها روائح الأنوثة بشكل يعجَز عن وصفه، ليجدَ نفسَهُ سابحًا في فلَكِ حُبها ولا يستطيع البوح لها بحبه، أشرتُ عليه بالإقدام فورًا لمصارحتها دون تردُّدٍ، وكم شعرتُ بالسعادة الجمَّة حينما كنتُ سببًا من أسباب إتمام ذلك الزواج السعيد.

مكتبتي تحوي عشرات، بل المئات من الروايات العاطفيَّة، قرأت بداية « روميو وجوليت » وغيرها الكثير وصولًا لروايات عبير وزهور فتجوَّلتُ بين صفحاتها وأَنِستُ بحلو كلماتها، فتأثَّرتُ كثيرًا وتألَّمت كثيرًا بل وبكَيتُ كثيرًا حتى أصبح قلبي كالورقة المهترئة، لذا لا أزايد عندما أقول أني قد نصبتُ نفسي..

روميو هذا العصر،

أنطونيو هذا العصر،

عنترة هذا العصر.. وربما... قيس هذا العصر!

ألم أخبركم أني عاشِق ولهَان؟ هذا كان سَمتي فأمَّا عن وصفي فأنا أبدو في مظهري مثل يوسف شاهين في «الباب الحديد»!

فقط أمزَح معكم، فهذه مزيَة أخرى أمتازُ بها.. طبعًا أُحدِّثْكم عن حِسِّ الدُعابة والمرَح المتوفِّرين لديَّ واللذين لا يتوقَّفان، فلا يتعارض كون المرء مرحًا مع وقاره وهيبته!

«ألم أخبركم أني أمتلِك شخصيةً مُركبة!».

أمتلكُ وجهًا مُستديرًا يتوسطه زوج من العيون الواسِعَة، يخط أعلاهما حاجبان عريضان، وثَمَّة أنف طويل مُدبَّب يحمل منظارًا طبِّيًا له عوينات رقيقَة يقع أسفله ثغرًا واسعًا تُزيِّنه أسنان متراصة، ولو أضفنا له رأسًا مُستوي الدوران يُغطِّيه شعر مُجعد كثيف أكاد أكون قد أوضحتُ لكم ملامح وجهي.. طويل القامة أتميَّز بكتفين عريضين وبطن ممسوح يحمل كل هذا قدمان قويَّتان نسبيًا.

كان صباحٌ مشرقٌ مشمسٌ من أيام الخريف الدافئة تلك التي تدفعك للتريض طلبًا لدفع بعض النشاط والدِفء بجسدك، أنا على موعدٍ مع أحد الأصدقاء قرابة نهاية النهار لنشهدا انصهار قُرص الشمس وامتزاجه بمياه البحر - كعادتنا سويًا - ولكنه هاتفني ليُخبرني بأن هناك أمرًا طارئًا استجدَّ لديه سيأخذ

جزءًا من وقتِه قد يتأخَّر على إثره قليلًا عن ميعادنا.. تقبَّلتُ الأمر بيسارتي المعتادة وأخبرتُه أن مكان لقاءنا سيكون في أحد المراكز التجاريَّة الشهيرة والقريبة من مكان وجهتنا السابقة.

توجَّهتُ لذلك المركز التجاري بعد رؤية مشهد الغروب المحبَّب إلى نفسي، كنتُ أتنقَّلُ بين المحال التجاريَّة أنظُر هنا وهناك أراقب هذا وذاك.. دلفتُ إلى أحدها بغيَة رؤية بعضٍ من معرُوضاته، ولأننا لا نتحكَّم بأقدارنا، فحينما يحين قدرك قد يعمى بصرك، وهذه أيضًا حال أغلبنا، فبينما كنتُ أقلب ذلك المعطف بين يدي، وبينما كنتُ أرفع عيني صوبَ أحد أركان المحل وجدتُها أمامي!

يا لقلبي الهزيل!

أصابتهُ صاعِقةٌ هبطَت عليه من السماء فاجتثَّته من جذوره!

شعرتُ بوخزٍ هائل في قلبي.

يا لها مِن فاتنة!

مَنْ هذه الحُوريَّة؟

ومتى ظهرَت؟

وكيف لم ألمحها من قبل؟

يا الله!

كانت ساحرَةً، وفاتِنةً، وناعمَةً، وحالمَةً، ومثيرةً، ورائِعةً، وعذبَةً، ورقيقَةً، وملفِتةً و... وباهِرة.

عندما وقعَتْ عيني عليها اضطربَتْ خواطري واهتزَّتْ مشاعري وخجلَتْ عيناي فأطرقتُ بهما أرضًا، وعندما رفعتُهما مرةً أخرى وأنا في حياءٍ شديدٍ وحبَّات العرق الباردة بدأت تتساقَط مِن جبيني وجدتُها تبتسم إليّ!

يا إله الكون رحماك من هذا الألَم!

تساءلتُ في جوفي هل حقًا قلبي ينتفِض؟

هل تبتسِم لي حقًا؟

نعم إنها تبتسِم لي، فهذا يبدو واضحًا وظاهرًا رؤيا العين.. كانت ابتسامتها عذبة مُشرقة ليس بها تكلُّف أو تكبُّر، نظرتُ خلفي لعلِّي أرى شخصًا هناك هو المقصود بتلك الابتسامة ولكن... ولكنها تبتسم لي بالفعل! فأنا لم أرَ أحدًا غيري، نظرتُ إليها مرةً أخرى مُدقِّقًا النظر فبدت ابتسامتها ساحرَة ومُلهِمة ومُشجِّعة.

هل هذا هو الحب من أول نظرة؟ نعم إنه هو.. هو.

قلبي ذبلَ من نظرتها، وجسدي انبرى من أنوثَتها، فكانت نموذجًا لفتاة أحلامي التي لطالما رسمتُها بخيالي، فلها شعر ذهبي مُتوهِّج كقرص الشمس ساعَة الظهيرة يُغشى له البصر، كانت تعقصه من خلفها ليتدلَّى في نعومةٍ وانسيابيَّة مُطلقة، وعينان بلون السماء الصافيَة التي لا يشُوبها غَيْمٌ ولا ضباب، وقوام بديع مُنضبِط تغَار منه أفروديت وفينوس، فيبدو كقطعة من العاج الليِّن والذي شُكِّل بوضعٍ لا يخاله ذرة خطأ، وأنف صغير الحجم تعتلي أرنبته ثَمَّة حُمرة تزيد هالَة الجمال من حولها، مع ثَغْرٍ عذب تعكس الإضاءة لون طلائه القرمزي.

الآن أنا على موعد مع الحب الخالد والحياة السعيدة السرمديَّة!

أنا.. أنا الذي أرفُضُ فكرَة النظرة الأولى ها قد ذبتُ فيه ذوبانًا وانغمستُ فيه انغماسًا!

ولكن سيظل هناك عائقًا بيني وبين تلك السعادة! كيف سأُخبرها عن حُبِّي لها؟ وكيف سأتبادل معها الحديث؟ أتتذكرون صديقي وتلك السمراء؟ نعم ليس هناك بديلٌ سوى هذا.. التشجُّع والبَوْح لها بما شعرتُ به تجاهها، عليَّ التوجه إليها الآن، عليَّ أن أقطع تلك الخطوات وأخبرها أني أحبها

وليكن ما يكون حتى وإن كانت أناملها الرقيقة ستترك علامات حمراء على وجهي!

أتخذتُ قراري بالفعل ثم بدأتُ التحرُّك نحوها، كنتُ أعلم أن هناك عيونًا تُراقبني ليس الآن فحسب، ولكن منذ أن رأيتها ووقعَت عيني عليها ولكني لم أعُد أبالي أو أكترِث فلم يكن لأحدٍ أن يُملي عليَّ ماذا أفعل..

اقتربتُ منها بضع خطوات وبينما كنتُ أدنو أكثر تناهَت إلى مسامعي بعض الضحكات القوية التي اخترقَتْ أذُني، التففتُ خلفي فوجدت امرأتين تنظُران نحوي وتُقهقان بقوةٍ شممت فيها سُخرية ما! يبدو أن ارتباكي أظهرَ لهما ما بداخلي، أو كان تصرُّفي طفولي ساذج كمُراهق صغير!

لا أعلم حقًا، ربما نظراتي لها كانت واضحة أكثر مما ينبغي فالصب تفضحه عيونه كما يقال.

ازداد توتُّري بشكلٍ ملحوظ، فعُدتُ بنظري لفاتِنتي و... وكم شعرتُ بإعصار من الدهشَة لا يُبقي ولا يذَر بدأ جنِينًا بضحكات تلك المرأتين وصار شيخًا هَرِمًا، ما إن التففتُ إلى معشُوقتي مرةً أخرى فوجدتُها تبادلهما نفس الابتسامة الساخرة!

نظرتُ لهما مرةً أخرى في توتُّرٍ وخجل علِّي أفهم شيئًا، فرأيتُهما يقتربان مني حتى كادتا تسقطان أرضًا من شِدَّة الضحك وكأنهما يُشاهدان عرضًا مُضحكًا لمهرِّج داخل سيرك!

تبًّا لرعونتكما.

تحدَّثتُ لنفسي «لن أهتم».

نظرتُ مرةً ثالثةً لفاتنتي و...

وكم شعرتُ بالحمق وقتذاك.

وقتما أدركتُ الحقيقَة وعلمتُ لماذا تضحكان!

فكم أنا بائِس!

وكم أنا حزين،

وكم كنتُ حقًا أحمقًا.

ترقرقتْ عيناي بالدموع وأنا أشعُر بألَمٍ هائلٍ يعتصر قلبي اعتصارًا حتى انكسرَت نظرتي ونكست رأسي، وعدتُ إلى الوراء في إحباطٍ وأنا أمسَح دمعةً حبيسةً في عيني قبل انفلاتها، ثم عدَّلتُ تلك العوينات التي أرتديها وأنا أسأل نفسي

في خجَلٍ شديد وحُزنٍ بائِس هل من المعقول حينما أقع يومًا في الحب، أقع في حب مانيكان؟!

⚜ ⚜ ⚜

القصة الخامسة



«خيانة»

أحملُ داخلي حُبًا وعِشقًا وهُيامًا لزوجتي الحسناء، كم عشقتُ سِحرَ عينيها، كم تألَّمتُ كثيرًا لبُعدها عني، وكم كانت قِصتنا مليئة بالأحداث الزاخرة.

يا لها من ليالٍ طوالٍ تذوَّقنا مرارتها وشقائها ونحن فى انتظارِ يومِ زِفافنا، ذلك اليوم الذي طال انتظاره حتى تعدَّى بضعة سنواتٍ مرَّت علينا كدهُورٍ عديدة حتى قضى الله أمرًا كان مفعولًا.. وتزوَّجنا.

ما أجمل أيام زواجنا الأولى.. مُنتهى الدِفء والحنان كانت زوجتى، بل لا أزايِد حينما أقول أنها كانت في مُنتهى الرعاية والاهتمام بي، فقد كانت تشملني بحنانها الجارِف وعطائها الدائم، تبث مشاعرها بلا حسابٍ، أو ميعادٍ، أو مقابل، فكثيرًا

ما أطعمَتني في فَمِي بيديها الرقيقتين، وكم كانت تحظى بأسعدِ أوقاتها بجواري وأنا أداعبُ خصلاتها الناعمة بينما كُنا نتسامَر سويًا ونتبادل الضحكات والمزاح في سعادة حتى تدنُو مِني وتُقبِّل وجنَتي بحُبٍ فأشعُر حينئذٍ بحُبِّها النقِي وقلبها الرائق.. ابتسامتها كانت الحُبَّ والسلوان، رِقَّتها كانت الدِفء والاطمئنان، أيامُ سعيدة وخصال حميدة كانت تمتَّع بها زوجتي.

لم أعتَد مُطلقًا تناول وجبة الغداء بعيدًا عن المنزل وبعيدًا عنها، حتى فى أيام السهَر داخل العمَل كنتُ دومًا أطلبُ الاستئذان لفترةٍ وجيزة حتى أذهب مُسرعًا لنتناول الطعام سوِيًا وأعود مرةً أخرى، وربما كان هذا يُفرحها كثيرًا، فكانت دومًا تُسمِعني عبارات الثناء والشكر والحب وتقول أنني أضحي بأشياء كثيرة مِن أجلها ومِن أجل سعادتها وهذا أمر يُؤكِّد حُبي لها ومكانتها عندي.

لكن هناك مِن الظروف الطارئة التي قد تأتيك فجأةً ما تجعلك مُضطرًا للانحراف قليلًا عن المسار والاعتماد على النفس، فتتناوَل الطعام وحدَك، وتتسامَر مع نفسك، وتخلُد للنومِ أيضًا وحدك.. فزوجتي كانت في طريقها للسفَر في زيارةٍ مَرضيَّة لإحدى أقاربها ومن المتوقَّع أن تمكُث عِدَّة أيامٍ ستكون حائلًا دون الانغماس في حُبها والنعيم بقُربها

والاستمتاع بضيائِها، فما إن ارتحلتْ أدركتُ على الفور أنني سأقضي ليالٍ طويلة أشعُرُ فيها بالوحدة، سأغدُو شاردًا وحائرًا وحزينًا...

أحيا بلا روح،

أتحدَّثُ بلا صوت،

أتنفَّسُ بلا هواء.

كيف بدأتْ خيانتي إذن؟ سؤال هام.

كيف انتهت؟

سأروي لك.

كنتُ أجلِسُ فى ذلك المطعم الأنيق لتناول وجبة الغداء وحدي والذي قد اعتدتُ الذهاب إليه في أيام عزُوبتي وأثناء فترة خطوبتي، وبالمناسبة هو أول مكان جمعني بزوجَتي فكان مكان لقائنا الأول، لذا قد اخترتُ تلك الطاولة في ذلك الركن الهادِئ بجانب إحدى نوافذ المطعم من الطابق الثاني وهو مكان إستراتيجي رائع بعيدًا عن تطفُّل أعيُن بعض البشر.

يُمكنني أن أنعَم بأجواءٍ ساحرَة من خلاله وفي فترة تناوُلي الطعام.. فكان هو المُحبَّب إليَّ للجلُوس فيه، ولم يكن المطعم في ذلك الوقت مُمتلئًا، فوجدتُ متعَةً شديدةً في ذلك الهدوء المنسَاب من حولي وذلك المنظر البديع بالخارج، زادَت روعَته مع تلك الموسيقى الكلاسيكية السابحة فى جو المكان، فشعرتُ معها بحنين جارف ورغبة مُلِحَّة في البكاء.

وما زاد تلك الصورة اكتمالًا وسحرًا هو تساقُط قطرات الأمطار الخفيفة بالخارج على زجاج النافذة في هدوءٍ مثير، ليصبح ذلك الزجاج حاجزًا لصوت الأمطار المتساقطة تكاد لا تسمع له صوتًا، فكان الجو خلَّابًا مُتناسقًا ومُتناغمًا بشكلٍ عجيب لم أعهده كثيرًا.

تخيَّل معي هذا، أجلس بمفردي في هدوءٍ، تسبح من حولي موسيقى ساحرة، زجاجٌ مُطِل على شاطِئ البحر، هطول للأمطار ثم...

ثم هذا العِطر الأخَّاذ!

نعم عِطرٌ نسائي ساحِر يُثمِل العقل ويُدغدِغ المشاعر ويروي الوجدان! عِطرٌ ليس بغريبٍ على أنفي، عطرٌ كالذي تضعه زوجتي.. بل إنه عطرها المفضل!

اخترقَتْ رائحةُ العطر مركز الشعور والإحساس عندي، نظرتُ جانبي في هدوءٍ فوجدتُها تُحدِّث النادِل فى رقةٍ مُتناهيَة والابتسامة الخلابة تعلُو وجهها المنير الساحر، كانت في ريعانِ شبابها ونضارتها، متفجِّر الأنوثة كان جسدها بشكلٍ يُشعرك بأن هناك هالَة من الطاقة تحيطُ بها، لكن العجيب في الأمر بل والمحيِّر أيضًا أنها كانت تُشبه زوجتي إلى حدٍّ مُدهشٍ بالفعل! ولكنها... ولكنها مُختلفة، فذلك السحر المُنبعِث منها والذي يُجبرك على النظَر إليها غير طبيعي.

لم أنفك عن التحدِيق فيها بهدوءٍ مُنتظرًا قُدوم النادِل حتى أطلُب حسائي المفضَّل.. فجأةَ نظَرَتْ نحوي في نُعومةٍ شديدة شعرتُ معها بقشعريرة سرَت في جسدي انتفض لها قلبي لوهلَة.

نظرة تُحطِّمْ ما لديكَ من قوة إرادة!

نظرة لها معنى واضح.. قرأته جيدًا!

((أعلم جيِّدًا أنكَ تنظُر إليّ)).

وكم كانت نظرَتها هذه كالسهم القاتل، فرغم هدوئي الذي أمتازُ به لكننى ولسببٍ ما شعرتُ بجبلٍ من التوتُّر جثَمَ فوق

صدري؛ فنسيتُ أمر النادل وتركتُه يمضي في طريقه دون أن أستوقِفه.

أسبلَتْ عينيها وأسدلتهما في رقَّةٍ مُنقطعة النظير سرَى معهما الخدر في جسدي، صراحة شغلتني تلك النظرة للحظات معدودة، إلا أن ذلك الجو المُمتع والهدوء البديع كانا يشغفان لُبِّي كثيرًا ويشغلان بالي؛ فأدرتُ وجهي نحو النافذة مرةً أخرى متطلِّعًا إلى شاطِئ البحر مُستمتعًا، فارتسمَت على شفَتيّ ابتسامة خفيفة من روعة ذلك المشهد الرائع حتى أنني لم أعلم كم من الدقائق مرَّت وأنا هكذا!

كان يُلازمني شعور قوي بأنها تُراقبني في إصرار؛ فحوَّلتُ نظري في هدوءٍ نحوها لأجدها بالفعل ترمُقني وتنظر إليَّ بقوةٍ وهدوءٍ، عدتُ بوجهي للمرة الثالثة إلى النافذة ناظرًا عبر زجاجها لتحتل ابتسامتي وجهي من جديد، وبينما كنتُ أفكِّر كيف أتغلَّبُ على ملَلي هذا ومَنْ يُمكنه مشاركتي تلك الوحدة شمَمتُ عِطرها يُداعب أنفي وشعرتُ بقدومها.

- ما بالكَ برُجلٍ وسيم تبدُو عليه علامات الوحدَة والحزن يجلس دون شريك.. أتراه يرفُض عرضًا ساريًا لمدَّة دقيقة واحدة من سيدة حسناء مثلي تُريد مُقاسمته الطاولَة وربما

بعض أحزانه؟ لا أظن ذلك فالعرض مُغريًا حقًا.. ألا دعوتني للجلوس؟

تلقيتُ عبارتها في وقتٍ حاسمٍ لتقطَع بها استرسال أفكاري، نظرتُ لها في ودٍّ حقيقي - لا أعلَمُ لِمَ - وأجبتُها بلُطفٍ وتَرحابٍ ليس لهما مُبرر قط!:

- بكل سرور سيِّدتي.

ابتسمَتْ في عذوبةٍ تخطُفُ الأبصار حتى أشرق وجهُها الناعم المبهِر فازدادت أنوثةً ورقَّةً حالمتين وخياليتين.. اقترَبَتْ مِني حتى لفحَتْ أنفاسها وجهي وأثملَ عطرُها وجداني ونظرَتْ بقوةٍ إلى عينيّ وقالت في دلالٍ أربكَني وهي مازالت واقفة:

- أشكرك لحُسن لطفكَ أيها الوسيم.

عدتُ بجسدي إلى الوراء شابكًا يديَّ من خلف رأسي أنظرُ لها بقوةٍ والابتسامة تملأ عينيّ.. عندئذٍ وقفتُ في تَلَكُّؤٍ مقصود، ثم درتُ حول الطاولة لأقفُ على قَيد خطوَتين منها وأنظُرُ لها ماطًا شفتيّ وعاقِدًا حاجبيّ في تعبيرٍ يدُل على المزاح من شأنه إذابة حاجز التوتُّر واجتذاب أطراف الحديث معها، فعقدَتْ حاجبَيها هي الأخرى في غضبٍ مصطنع وعلى

شفتيها ظهرت ابتسامة ملهمة لتُبادلني بذلك نفس المزاح، ثم تراجعَتْ خطوةً إلى الوراء تنظُر لي في صمتٍ منتظرةً رد فعلي.. أمسكتُ بظهر المِقعد ثم حرَّكتُه إلى الخلف دون أن أتفوَّه بكلمةٍ واحدة، فتحرَّكتْ فى خيلاء تلك الخطوتين وقامت بخلع معطفها الثمين ليظهر من تحته ثوبٌ أسودٌ أنيقٌ ورقيقٌ زادها سحرًا، أراحته على ظهر المِقعد ثم جلسَتْ وتفوَّهت بكلمةٍ واحدة في همسٍ قاتل:

- أشكُرَك.

رجعتُ إلى مقعدي وفي رأسي أسئلة مُحيِّرة تُعربد بها...

لِمَ أفعَلُ ذلك؟

ولماذا أهتمُ بها هكذا؟

بل كيف وافقتُها على الفور ولبَّيتُ رغبَتها في مشاركتي؟

هل لأنها تشبه زوجتي؟

أم أن فِتنتها بالفعل أقوى من أني أتجاهلها أو أتجاهل رغبتها في الجلوس والحديث معي؟

أشتمُ رائحةَ الخيانَة تعلُو الآن وتهب لتضرب بجسدي.. أسئلة كثيرة مرَّت سريعًا برأسي استوقفها سؤالها المباغت:

- لعلك تتساءل عن جُرأتي؟

نظرتُ لها وأطلتُ النظَر في عينيها هذه المرة، ثم قلتُ في ثقةٍ:

- مُطلقًا.

ظهرَتْ على وجهها الرقيق علامات الدهشَة، ثم انفرجَت شفَتاها بِابتسامةٍ هادئَة فسألتني في مكرٍ:

- ألستَ تتساءل عن جُرأتي والسِر وراء قدُومي وذلك العرض الذي طرحْتُه عليك؟

لم ألتفِت لسؤالها أو بالأحرى لم أستوعِبه جيِّدًا فكنتُ مشغولًا بأمرٍ ما حتى قُلتُ لها بغتةً:

- هل تعلمين أنكِ تُشبهين زوجتي بشكلٍ كبير؟

همَّت بقول شيءٍ ما ولكنها تراجعَت عنه سريعًا لتصمت لحظات وهي تنظُر في قلب عينيّ مباشرة ثم ابتسمت فى رقةٍ عجيبةٍ - يبدو لأنني غيَّرتُ مجرى الحديث - وعادت بظهرها إلى الخلف ثم ارتدَّت مرةً واحدةً وقالت فى همسٍ مُثير:

- ألهذا الحد؟

بدَت في عيني حيرة من عبارتها فهزَزت رأسي وقلتُ لها مستفسرًا:

- أيُ حدٍّ تقصدين؟

اقتربَتْ بوجهِها نحوي ثم قالَتْ وهي تضغط على كلماتها المنتقاة بعنايَة والتي شعرتُ معها وكأنني انتقلتُ لمكان بعيييييد ساحر، حيثُ الطيور الغناء، والجو البديع، وجنان الزهور والرياحين:

- للحد الذى جعلَ عينيكَ زائغتين هكذا، وقلبكَ أكاد أسمع صوت دقَّاته من هنا.. ألا تسمعه أنت؟ أم أراني مُخطئة؟

مرَّرتُ كَفِّي على رأسي في مُحاولة باهتَة لأحدُّ من توتُّري الذي بدأ يعصف بي، والحقيقة أنني لم أحاول كتمان مشاعري وأنا أجاوبها:

- لا لم تُخطئي.

توقَّفتُ قليلًا كي أُطفِئ من تلك النيران التي بدأت تتأجَّج داخلي واستطردتُ:

- كيف تصنعينَ هذا بي؟ أراكِ تثقين بقُدراتك وتُدركين مدى تأثير سِحركِ وأنوثتكِ على الآخرين!

ضيَّقتْ حدقتيها في إثارةٍ وهمسَت:

- نعم أُدرِك هذا.

ثم أطلقَت ضحكةً عابثةً وأردفَت:

- وخاصةً معكَ أيها الوسِيم.

تسارعَت أفكاري وشعرتُ بأن ثَمَّة مشاعر تحرَّكتْ داخلي، فقُلتُ محاولًا دفع الحديث لطريقٍ آخر:

- هل التقينا من قبل؟

أجابَتْ على الفور:

- لا لم نلتقِ، ولكنني أراكَ كل يوم هنا وعلى نفس الطاولة، أنظُرُ إليكَ طويلًا ولا أرى سوى حُزنٍ عميقٍ يحتل وجهك، حاولتُ كثيرًا لفت انتباهك علَّك تنتبِه ولكنكَ لا تراني.. حتى أتى اليوم فما كان مِني أن أفعل أكثر مما قُمتُ به معكَ.

اتسعَت ابتسامتي وقلتُ لها في صراحةٍ:

- ولكنني متزوج!

قالت في إصرارٍ:

- لا أكترِث.

نظرتُ لها طويلًا حتى تحرَّكتْ شفتاي:

- حقًا إنكِ تملكين وجهًا له سحر فريد لا يُقاوم، حتى أنني في حيرةٍ من أمري، فلم أكن أتوقَّع مُطلقًا أن أقع مُتأثرًا به، حتى أنني تساءلتُ في نفسي لماذا حدثَ لي ذلك، ولماذا وافقتُ على مشاركتكِ الطعام خاصة وأنا رجل مُتزوِّج؟

صمتُ برهةً ثم تنهَّدتُ حتى أُفرغ توتُّري مُكملًا:

- حقيقة لا أعلَم.. ولكنكِ تحمِلين من الجمال ما لم تحمِله أنثى من قبل، جمالٌ خلابٌ ليس له مثِيل، وقوامٌ بديعٌ يُنافس في كماله وفِتنته قوام ملكات الحضارات الفرعونية القديمة.. هناك شيء خفِي في ملامحكِ وربَّما في عطركِ الذي لعب دورًا جوهريًا في إقناعي بالموافقة على مشاركتكِ الحديث، بل سأكون صريحًا معكِ.. قد جعلَني أُقدم عليه إقدامًا! كثيرًا ما أرى نساءً مِن أجمل ما يكُن، ولكنكِ... ولكنكِ مُختلفة وفريدة!

أطلقتُ ضحكةً عابرةً أنفُثُ بها عن حالتي واستطردتُ موجِّهًا لها سؤالًا:

- ولكنكِ لم تُخبريني بعد، لماذا أقبلتِ على ذلك الأمر؟

قالَت بتلك النبرة المنخفضة وبذات الصوت الناعم:

- هل تقصِد لأنني أقدمتُ وطلبتُ الجلوس معكَ؟

- نعم أقصد هذا.

نظرتُ لفمها الدقيق في شغفٍ مُترقِّبًا إجابتها.. لمعَتْ عيناها بقوةٍ وتوهَّجت بشرَتها لتزداد حُمرة وروعة ثم قالتْ وهي تسبلهما:

- وجدتكَ تجلِس بمفردكَ ولعِدَّة أيام مُتتالِيَة تظهرُ عليك علامات الوحدَة، فلمستُ فيك شعورًا قويًا، شعور الاحتياج لفاتِنة مثلي تُقاسمك تلك الوحدة.

ثم خفضَتْ صوتها واقتربَت مِني كثيرًا حتى كادت شفتاها تُلامس وجهي واستطردَتْ في بُطءٍ وهمسٍ عجيب:

- ثم إننى أردتُ هذا فأنتَ ترُوق لي كثيرًا.

أطلقَتْ ضحكةً عابثةً أخرى قائلة:

- إن لم يكُن عندكَ ما يمنع.

أليس غريبًا أن أتذكَّر زوجتي الآن؟

نعم تذكَّرتُها ولا أعلم لماذا في ذلك الوقت.. نتساءل كيف تبدأ خيانتنا، وأقول طريق الخيانة دائمًا يبدأ بإمرأة مُثيرة.

لماذا انجذبتُ إليها؟

ولماذا أثارَتْ عواطفي؟

وماذا تُريد مِني.. لا أعلم!

لم يحدُث ذلك الأمر معي من قبل!

هل أستمِرُ في مُغازلتها لتسد هذا الإرث الضخم من الفراغ الذي تركَته لي زوجتي!

ولكن... ولكن ماذا بعد المغازلَة؟

هل أنجرف بمشاعري نحو أعماق خيانتي لأُدنِّس من طُهر مشاعري وأنسى أمر زوجَتي الحبيبة؟

لماذا أشعُر بتلك الوحدة وهذا الفراغ؟

فلسوف أجاريها.. نعم ولِمَ لا؟!

لكن...

هذه خيانة لزوجتي.

ولماذا أُطلِق عليها خيانة؟!

فما الضرَر لو استمتعتُ بقسطٍ من الدلال.. نعم ولِمَ لا؟!

قسط يسير يُعوِّضني بُعد زوجتي عني.

حقًا ستكون خيانة لعَهدي، وخيانة لحُبي، وخيانة لها.. زوجتي.. زوجتي الحبيبة.

فجأةً ودون تردُّدٍ قلتُ لها مُبتسمًا في هدوء:

- سيدتي ما أروع رِقَّتك وعُذوبتك، حقيقة لم أرَ مثيلًا لهما من قبل، وكم ودَدتُ لو أظل معكِ لأنعَمُ بلحظات الراحة هذه، ولكن هناك أمر ما يمنعني، أمر أقوى من ذلك... إنها زوجتي.

زوجـ... آآآه

- يا لهذا الصداع اللعين.. أمسكتُ برأسي في قوةٍ وأنفاسي تتلاحق في سُرعةٍ مُخيفة، وضاق صدري بشدَّة، فلم أستطع التنفُّس أو الاستمرار في الحديث أو قول أي شيء، وشعرتُ بدوارٍ عنيفٍ بدأ يدُب داخلي، ودقَّات قلبي بدأتُ أسمعها وكأنها طَرْقٌ على الحديد، وثَمَّة غمامة مُعتِمة بدأت تنساب في رأسي وأخذَت طريقها للانتشار، ثم بدأتُ في الترنُّح ثم السقوط أرضًا و...

آآآآآآآآه

«حسنًا أيها الطبيب، لقد أخبرتكَ بكل شيء، هذا ما يحدُث لي دائمًا وفي كل يومٍ أجلِس فيه بذلك المطعم! أراها هناك ثم أُحدِّثها وأُسامِرها وأُغازِلها حتى يقتحم ذلك الصداع الرهيب رأسي فأسقط مغشيًا عليّ».

- لقد أخبرتَني أنكَ في هذه الحالة منذ ثلاثة أشهر.. صحيح؟

- نعم أيها الطبيب.. صحيح.

- اِسمعني إذًا جيِّدًا، أنا أُقدِّر حُبك العظيم لزوجتك، وأُقدِّر وفاءكَ لها وشعورك النبيل برفض أي طريقٍ يدفعكَ لخيانتها، هذا لو اعتبرنا أن ما أخبرتَني به الآن يُعدّ خيانة! لكن ما ذكرتَه يجعلني أضعُ عِدَّة احتمالاتٍ مُهمة جميعها تشترك في معنى واحد؛ «إنها أعراض مرضيَّة»، ولو أضفنا بداية ظهور هذه الأعراض وظهور هذه الهلاوِس السمعيَّة والبصريَّة والتي ظهرت مُتزامنةً مع الحادث المروع الذي تعرَّضَتْ له زوجتك وفقَدَتْ على إثره حياتها، ستُدرك تمامًا أنكَ تختلِق ذلك العالم وتلك الحالة لنفسك للهروب من واقعك الأليم وتعويضًا للفراغ الذي تركَته زوجتك لك، فترى أشخاصًا غير موجودين تُحدِّثهم وتتفاعل معهم، كتلك المرأة الساحرة! الأمر

يحتاج منكَ مجهودًا وصبرًا.. ستتكرر الزيارة لعِدَّة جلسات وسنبدأ فورًا في العلاج.

انسابَت دموعُه في صمتٍ وأومأ برأسِه في استسلامٍ ويأسٍ قائلًا:

- حسنًا أيها الطبيب.

⚜ ⚜ ⚜

القصة السادسة



«حسناء»

فجأةً فتحتُ عينيَّ وجدتُني مُمدَّدًا على طاولَة خشبيَّة خشنَة جدًّا عاري الصدر مُقيَّد اليدين والقدمَين، فُرِدَ ذراعاي إلى الخلف وثُبتا على تلك الطاولة بحبلٍ غليظٍ متينٍ، قدماي كذلك فقد فُعل بهما نفس الأمر! أغمضتُ عيني مرةً أخرى وأنا أحاول عبثًا أن أستوعِب الأمر، شعرتُ بثقلٍ رهيب في رأسي ودوار حادٍ يعصِف بها، والذي أخذ يختفي تدريجيًا حتى بدأت الرؤية تتضح.

كنتُ داخل خيمَة بدائيَّة مُتوسطة الحجم، أخذ الهواء المحمَّل بالأتربة يضرب بمدخلها ويُطير بابها، وشعرتُ بلفح الهواء الساخن يرتطِم بوجهي.. الهدوء يُثير أعصابي فلم يكن هناك وباستثناء صوت الرياح سوى الهدوء التام.

أخذتُ أتذكَّرُ الثلاثة أسابيع الماضيَة وما حدثَ فيها من أحداث آلَت بي لهذا الوضع الغريب.

كنتُ قد قرَّرتُ الذهاب في رحلةٍ سياحيَّة إلى مدينتي (الأقصر وأسوان) كنوعٍ من الترفِيه والانتقال من جو المدينة المزدحم وتوتُّر العمل إلى الهدوء والعُزلَة وتجديد النشاط، ولم يكن هذا ليتوفَّر سوى في سِحر هاتين المدينتين اللتين مُزجتا بعبق الحضارة المصريَّة القديمة.. منذ اليوم الأوَّل قرَّرتُ التحرُّك بمفردي غير مُلتزم ببرنامج الرحلة ـ وبالاتفاق مع مُنظِّمي الرحلة ـ فقط قضيتُ معهم اليوم الأول، وفي صباح اليوم الثاني بدأتُ بالتحرُّك بمُفردي، قمتُ بتأجير سيارة خاصة تُقِلَّني إلى أسوان، وصلتُ هناك قُبيل الظهيرة وقمتُ بحجز غرفة بإحدى بُيوت الشباب، وما إن دلفتُ إليها حتى أخذتُ حمَّامًا سريعًا باردًا وأبدلتُ ثيابي وتناولتُ وجبة خفيفة، قمتُ بأداء صلاة الظهر ثم بدأتُ رِحلتي الفرديَّة.

كانت بالفعل مدينة ساحِرَة بكل ما تحمِله هذه الكلمة من معانٍ، لاسيَّما طبيعتها التاريخيَّة وجوها الرائع وأهلها الذين أشتهر عنهم الكرم.

كنتُ أريد الجلوس قريبًا من نهر النيل؛ فدلَّني أحدُهم على قريةٍ من أصولٍ نوبيَّة تقع على محاذاة النهر، وهناك بعض

الصخور الرائعة والمناظر الطبيعية الفاتِنة التي يُمكنني الاستمتاع برؤيتها والتقاط الصور الفريدة.

كنتُ أحملُ حقيبتي الصغيرة على ظهري وبها بعض الحاجيات البسيطة.. ورَق، قلَم، سجادة للصلاة من ذلك النوع المزوَّد ببوصلَة للتمكُّن من تحديد اتجاه القبلة، زجاجة مياه، وبالطبع كاميرا فوتوغرافية.. قطعتُ مسافةً لا بأسَ بها سيرًا على الأقدام وأنا أسلُك طريقًا مُتعرِّجة بمحاذاة النهر، أخرجتُ الكاميرا والتقطتُ عِدَّة صورٍ رائعة، كانت المناظر تأخُذ بالألباب حتى أني لم أشعُر بالوقت مُطلقًا؛ فقد كانت الشمس على وشَك المغيب، نظرتُ ورائي فوجدتُني بالفعل قطعتُ مسافةً لا بأسَ بها ابتعدتُ فيها عن القريَة ولم يكُن هناك أحد غيري!

جلستُ على صخرةٍ مُتوسِّطة الحجم أريحُ قدميَّ، ثم أخرجتُ سجادة الصلاة استعدادًا لصلاة المغرب.

كنتُ أشعرُ بالعطَش وقد فرغَتْ زجاجتي من المياه تمامًا، ولكني لم أكترِث لذلك كثيرًا؛ فالمناظر الطبيعية الخلابة لها من السحر ما يَسْلُبك حتى إرادتك، ولمَّا غابت عن السماءِ زرقتها مُعلنةً بذلك قدوم الليل تحرِّكتُ مُخترقًا تلك الطريق

الصخرية لعلِّي أجدُ من أبتاعُ منه المياه حيث اشتدَّ بي العطش لكن لم أجد سوى الصخور!

أضواءٌ خافِتةٌ تأتى من بعض أعمدة الإنارة المتباعدة، ولكن ما ساعدني حقًا على اختراق ظُلمة الليل هو ضياء القمر الذي اعتلى وسط السماء فكنتُ أرى بوضوحٍ شديد.. لم يكُن هناك شيء من حولي سِوى طُرُقٍ صخريَّة شبه مُمهَّدة وبعض الكُتل الحجريَّة التي ازدانت بها المنطقة، نظرتُ مرةً أخرى لعلِّي أجِد شيئًا، فلمحتُ هناك طريقًا ضيِّقة لا يكاد يبلغ عرضها المتر الواحد والتي تقع بين تلين صخراوين، قلتُ لنفسي لعله ينتهي بسبيل يُؤدي بي إلى قرية أو لطريق العودة!

اقتربتُ من التلَّين ونظرتُ داخل الطريق فوجدتُها لا تتعدّى العشرين مترًا طولًا! إذن لا ضَير ببعض المغامرة وقطع تلك المسافة.

دلفتُ إليها بالفعل، وبينما كنتُ أسلكها وجدتُ هناك ضوءًا قويًا يُلقي بظلاله داخل ذلك الفج - التجويف - الذي لم أستطِع تحديد مصدَره!

اقتربتُ في تؤدة نحو نهاية الطريق والفضول قد بدأ يدبُ داخلي، ما إن وصلتُ لنهايتها وبينما كنتُ أدفعُ برأسي في

حذَرٍ لأستكشِفُ الوضع حتى شعرتُ بشعورٍ عجيبٍ تملَّكني لِمَا رأيته أمام عيني!

كانت أشبه بساحة دائريَّة مُتوسطة الحجم يبلُغ قُطرها ما يقرب من ثلاثين مترًا، أرضها مُنبسطَة ومستويَة افتُرشَت بالنجيل الطبيعي، وأحاطَت بها بعض الصخور الجبليَّة المرتفعة من على الجانبين بشكلٍ هلالي، بحيث كانت تتسع مِن المنتصَف وتضيق تدريجيًا نحو الجنوب والتي كان يخترقها مجرى مائي يمتدّ داخلها وينتهي ببرْكة صغيرة من الماءِ الفرات، بينما ناحيَة الشمال يوجد طريق طويلَة لا أعلم إلى أين تنتهي، كانت على حواف تلك الساحة بعض المصابيح التي تعمَل بالكيروسين والتي وُضعَت وتراصَّت بشكلٍ مُنضبِط تفصِلها مسافات مُتساوية لتصنع دائرة تُحيط بتلك البِرْكة وتُلقي عليها ظلالًا مهيبَة.

حقيقة رَغم هذا المنظر الساحر بكل المقاييس والذي أثار شغَفي ودهشَتي لكنه لم يكُن مصدرهما الحقيقي!

نعم لم يكن ذلك مصدر دهشَتي، بل ما رأيتُه عند البرْكة!

كانت هناك فتاة تجلس بالقرب من البركة تضع قدميها إلى جانبها، تتكِئ على مرفقها الأيمَن، تستنِد بوجهها على راحتها

اليُمنى، بينما كانت أنامل يدها اليسرى تُداعب صفحات المياه العذبة في رقةٍ ودلال يحبسا الأنفاس!

كانت فتاة سمراء اللون جميلة بشكلٍ يصعب وصفه، جمالٌ لن ولم أرَه من قبل وقد لا أراه ثانية، ملامح وجهها مُلفتة تتميز بنسقٍ عجيب، وما زاد دهشَتي حقًا هي تلك المرأة النوبية التي كانت تجلس من خلفها وتستند على رُكبتيها في احترامٍ بالغ تقوم بتمشيط شعرها الأسوَد الناعم الطويل في عنايةٍ شديدة وسعادة بالِغَة ظهرت على مُحيَّاها.

لم أعُد أشعُر بشيءٍ مُطلقًا، ازدادت ضربات قلبي حتى وصلت إلى حدٍّ مُخيف لِمَا أصابه إثر هذا السهم النافذ الذي اخترقه دون استئذان، أغمضتُ عينيَّ ثم فتحتهما عن آخرهما كي أتأكَّد أني لا أحلم، ولكنه ليس بحلمٍ أو وهمٍ بل الحقيقة تسطع.

قامت تلك المرأة في هدوءٍ مُتجهةَ نحو تلك الطريق الشمالية دون أن تلمحني بينما تركَت تلك الساحرة بمفردها، لم يكن هناك وقت للتفكير فتحرَّكتُ على الفور مُتجهًا نحوها وما إن رأتني حتى اعتدلَتْ في جلسَتها وقد اعتلتْ ملامح الانزعاج والتوتُّر وجهها الفتَّان فاقتربتُ هامسًا:

- لقد ضلَلتُ الطريق وفرغَتْ زُجاجتي من المياه تمامًا، وكنتُ أبحثُ عن بعضها.

لم تتفوَّه بكلمةٍ واحدة بل حدَّقت بي لوهلَة واتسعت عيناها دهشةً، ثم سُرعان ما لانَت ملامحها الرقيقة وأخذتْ تنظُر إليَّ في هدوءٍ تُتابع كلامي وتحرُّكاتي، أما أنا فقد شعرتُ بعاصفة من المشاعر الجيَّاشة تطيح بكياني كله فنظرتُ إليها بابتسامةٍ ودُودةٍ على وجهي وعلامات التساؤل في عيني ثم أخذتُ نفسًا عميقًا وقلتُ لها في توتُّرٍ:

- أنا «محمود».. «محمود حلمي»... أ.. أمممم.. أأ.. أنا.. أأ... يبدو أني قد ضللتُ الطريق وأبحثُ عن بعض الماء، هلا قدَّمتِ لي المساعدة؟

لم تُحرِ جوابًا، فقط تلك النظرات العذبة التي تحوَّلَت إلى ابتسامة خفيفَة رُسِمت على مُحيَّاها المُنير فأضفى عليها سحرًا يخترق العظام مباشرة.. وبينما عزمتُ على سؤالها للمرة الثالثة و...

«أنت هناك.. ماذا تفعل عندك؟».

كانت تلك المرأة النوبيَّة قد عادت مِن جديد تحمل شيئًا ما وهى تُلقي على مسامعي تلك الكلمات بحدَّة ـ بتلك اللكنة

المميَّزة لأهل النوبة ـ فنظرتُ لها غير مبالٍ وقلتُ لها في هدوءٍ:

ـ أنا أبحث عن الماء.

توقفتُ لحظةً واحدةً ثم أكملتُ وأنا أسألها في شغفٍ لم أستطِع كتمانه:

ـ مَنْ تكون هذه الفاتنة؟

قالَت في لهجةٍ عدائيَّةٍ واضحة:

ـ ليس هذا من شأنك.. هيا، هيا اذهب من هُنا سريعًا قبل أن تُعرِّض نفسك للأذى.

ثم نظرتْ نحو سيدتها ـ التي ما زالَت تنظُر نحوي ـ وأخذَتْ تُحدِّثها باللغة النوبيَّة التي لا أعرف عنها حرفًا واحدًا!

لم ترفع عينيها عَنِّي مُطلقًا، ترمُقني بنظراتٍ ثاقبَةٍ حتى خُيِّل إليَّ أنها لم تعُد تستمع لمخدُومتها! وبالطبع لم أفهم شيئًا من كلام تلك السيدة، ولكن هناك كلمةً واحدةً اخترقَت أُذُني، عرفتُ أن أميِّزها بوضوح.. «حسناء».

لم أنتظِر طويلًا، بل قلتُ في سرعةٍ وفضولٍ وأنا أنظرُ في عينيها مباشرة:

ـ اسمكِ «حسناء»؟

حقيقة لم أبالِ بنظرَة الدهشَة البالغَة، وحتى أكون أمينًا كانت قد رُسِمت نظرة بلاهَة شديدة على وجه تلك السيدة!

اتسعتْ عيناها في ذهولٍ وتدلَّى فكّها السُفلي بشكلٍ جعلني أُشفِق عليها حقًا لأنني عرفتُ اسم سيِّدتها، ما شغلني حقًا هو رد فعل تلك الساحرة، فقد عادت لتتكِئ على مرفقها الأيمن مرة أخرى في نعومةٍ ودلالٍ وهى ما انفكَّت تنظُر إليّ، ثم أغمضتْ عينيها الزرقاوين ذاتا الأهداب الطويلة في رِقَّةٍ مُتناهيَةٍ اهتزَّ لها كياني، ثم عادت بهما مرة أخرى في هدوءٍ إشارة منها بالإيجاب على سؤالي.

شعرتُ بلفحٍ من النيران ينتشر في جسدي وموجة حارَّة من المشاعر الملتهبة تنتفض داخلي فوددتُ الصراخ قائلًا:

«كم أحبكِ!».

قطَعَتْ تلك المرأة أفكاري وهي تقترب مني في تحفزٍ واضِحٍ مُشيرةً بيدها مُعلنةً غضبها الشديد قائلة بنبرةٍ حادة:

ـ إن لم تمضِ في طريقك مُبتعدًا من هنا ستكون عاقبتك وخيمة!

قلتُ في هدوءٍ مُشيرًا لها بزجاجتي الفارغَة:

- فقط أريدُ بعض الماء.

قالَتْ في غضبٍ:

- ابتعِد عن هنا، لا يوجد عندنا ماء.

«بل أعطِه الماء».

أخيرًا تحدَّثتْ!

أخيرًا سَمِعْتُ صوتها!

يا إلهى.. ما هذا الصوت العذب؟

صوتٌ اقتحمَني وهزَّني بشكلٍ لم أتخيَّل أن يحدُث معي!

أشارتْ لي بالتقدُّم، فتقدمتُ كالمسحور نحوَها أمام نظرات البلاهَة التي ملأت وجه مخدُومتها.. دَنوتُ منها وهي ترفع كوبًا فخاريًا لامعًا وتغُوص به في هذا الينبوع وتُخرج منه بعض الماء وتدفعه نحوي! اقتربتُ منها وأخذتُ الكوب ثم جَرَعْتُه في هدوءٍ وأنا أختلِس منها النظرات.

كان مذاقُ الماء رائعًا بحق، ومع ذلك الجو الرائع وهذا الشعور الذي تملَّكني وذلك الوخز الذي شعرتُ به في قلبي وجدتُني أقولُ لها فجأةً:

ـ كم أنتِ فاتنة! حقًا لم ترَ عيني مثيلًا لرِقَّتك هذه وجمالك هذا قط.. أنا لا أعلم ماذا أقول، ولم أعد أقوى على تحمُل ذلك الشعور!

لم تبعد ناظرَيها عنى قَيد أنمُلَة.

مازالت ترمُقني...

مازالت تخلبُ لُبِّي بعطرها المفعَم بالحيويَّة ونظراتها المُحيِّرة.. رفعتْ يدَها مُشيرة إلى الكُوب الفارغ قائلةً في عذوبةٍ فاقَت عذوبة ((جوليت)):

ـ هل تُريدُ المزيد؟

دفعتُ يدي لها بالكوب دون تفكيرٍ وقلتُ في تهدُّج:

ـ إن أذنتِ لي.

أخذَتْ مِني الكوب وهي لاتزال متكأة فَملأَته مرةً أخرى وقدَّمَته لي، وما إن لامسَ الكوب أصابِعي حتى عادتْ بيدها مُسرعةً وعلى قسماتها علامات الشرود!

شعرتُ بالضيق قليلًا لهذا الموقف إلا أن ملامحها الشارِدَة ألزَمتني الصمت، نظرتُ لمخدومتها وجدتُها صامتةً بينما اختفتْ ملامح الطيبة وراء ذلك الوجه العبوس وهى تنظُر نحوها في ترقُّب.

أما هي فأخذتْ تتطلَّع لتلك المرأة ثم نظرَتْ نحوي بنظرةٍ أكاد أقسم أنها نظراتُ حُبٍّ جامحَة، فقامت بالاعتدال من جِلستها ومدَّتْ يدها خلفها وأمسكَتْ بقنينةٍ فخاريَّة في حرصٍ شديدٍ دفعتْ بغطائها أرضًا ورفعتها نحو أنفها لتستنشقها بقُوَّةٍ وفي سعادةٍ ظهرتْ على ملامحها، ثم وضعَتْ بعضًا من ذلك السائل الوردي الرائق الذي انسابت قطراته داخل الكوب ونظرَتْ إليَّ ثم قالت في سعادةٍ حقيقية:

- أتُريد البقاء معي إلى الأبد؟!

صرخَتْ مخدُومتها في هلَعٍ شديدٍ حتى أن جسدها أخذ ينتفِض في قوَّةٍ في الوقت الذي شعرتُ فيه بالاندهاش الشديد لجُملتها، فقالتْ المرأة في توسُّلٍ وتضرُّع:

- لاAA يا سيدتي لا! ستكون العواقِب وخيمَة والنهاية أليمَة!

نظرَتْ لها دون أن تُجيبها، فبكتْ ـ مخدُومتها ـ وبدأت تتوسَّل أن تعُود عمَّا انتوته، فعادت بنظرها نحوي تُكرِّر سؤالها في لهجةٍ جادة:

ـ أتُريد البقاء معي إلى الأبد؟!

لم يكُن لديَّ الخيار، كانت خطوَة جريئة مِنِّي أن أقبل عرضها وطلبها، حتى تساءلتُ في نفسي، هل هو مجرد إعجاب أم أنني بالفعل سقطتُ في حُبِّها؟ لكنني وجدتُ الكلمات جرَت على لساني كالذي أصابه مس:

ـ نعم حسنائي.. أريد وإلى الأبد.

اتسعتْ ابتسامتها وهى تُعيد الكَرَّة لتدفع بكوب الماء نحوي، فتقدَّمتُ تلك الخطوتين وأنا ألمَحُ تلك المرأة وقد سقطَت على ركبتيها في ذهولٍ شديد وكأنها لم تستوعب ما يحدُث!

أخذتُ الكوب ورفعَتُه نحو فمي فتخلَّلت أنفي رائحة ذكيَّة جدًا جعلَتني أدنُو بالكوب نحو فمي ثم... ثم شربتُ الكوب كاملًا!

سقطَتْ تلك المرأة كالمغشي عليها، بينما أشارت لي « حسناء » بالجلوس، فدنوتُ أكثر وجلستُ جوارها، فابتسمتْ في سعادةٍ جمَّةٍ وأخذَتْ تُحدِّثني:

ـ كنتُ أعلمُ أنَّك ستأتي اليوم، ولا تندهِش إن أخبرتُكَ أني كنتُ في انتظاركَ، ولا تسألني كيف هذا، لأني لا أعلم حقًّا كيف! ولكني حلمتُ بكَ أكثر من مرةٍ، بل رأيتُ وجهكَ الوضَّاء هذا بملامحكَ الوسيمَة ونظراتك الهادئة وعذوبة كلامكَ الرائعة!

عادت لتتكِئ مرةً ثالثةً وبدأتْ تُداعِبْ سطح الماء الفرات هذا وأكملَتْ في هدوءٍ:

ـ نحن هُنا لنا عادات وتقالِيد لم تتغيَر منذ عِدَّة قرون، ولأني من سُلالة عريقَة والأنثى الوحيدة المُتبقية من تلك السلالة، ولأننا لا نقبَل مُصاهرة الأغراب، ولأنهم أيضًا ينتظرون حفل عُرسي بفارغ الصبر حتى أضع مولودًا جديدًا يحمِل في عروقه الدماء العريقَة؛ فقد اتفقوا جميعًا وقرَّرُوا إتمام زواجي نهاية هذا الشهر من أحد الأقارب والذي يبلغ من العمر خمسين عامًا.. تخيل هذا! رجل في نهاية عقده السادس يتزوَّج بفتاة في مُنتصف عقدها الثالث!

وقد صنعوا شراب «الحياة» هذا ليكون رباطًا مُقدَّسًا ودائمًا يجمع بين الزوجين ولا يجوز مُطلقًا أن يتناوله سوى العروسين حتى لا يكون نذير شُؤم، وأنا لم أكن لأختار غيركَ

للزواج بي، ولأنكَ شربتَ من قنينتي فلا بد أن نتزوج ونهرب بعيدًا عن أعيُنهم أو... أو يقوموا بقتلي وقتلكَ أيضًا!

كنتُ أستمع إليها في اهتمامٍ بالِغٍ لامحًا نظرات الرجاء الممزوجَة بالأمَل المُطلَة من عينيها التي أحاطتني بها، مُؤمنًا بصدق كلامها الذي أخبرَتني به.

عجيبٌ هو القدر!

يأتينا بمواقفٍ فاصلَةٍ في حياتنا بدون ميعادٍ سابق وعلينا اتخاذ القرار دون تردُّد، وفي الوقت الذي نظُن فيه أننا اخترنا الطريق الصحيحة لنسلُكها، نكتشِف فيما بعد أن قرارنا هذا كان خاطئًا وربما يتسبَّب في توريط أحدهم في خضم أهوالٍ وصعوباتٍ قد تُعرِّض حياته لخطر داهِم.

ربما أنانيَّتنا هي ما تدفعنا لاتخاذ ذلك القرار!

ربما عدم قراءتنا الجيِّدة للواقع!

ربما هو قدَرنا.. ربما.

فجأةً وقعتُ في حُبها حتى النخاع وأيقنتُ بعد اللقاء الثالث أنني بالفعل سقطتُ في غزل الحب وشباكه، وبِتُّ مُتيمًا بها فنسيتُ كل شيء، نسيتُ حالي، وعملي ومُستقبلي، أهلي

وأصدقائي، ولم أعُد أذكُر سِوى وجهها الملائكي والحاضر الذي أحيَا فيه، ثَمَّة شعور سكنَ صدري ولا أستطيع الانفكاك عنه.. شعور حلو المذاق يزيد معه ظمأى.. شعور أني لن أستطيع العيش بدونها.

تذكَّرتُ عشرة أيامٍ كاملة قضيتُها معها في نعيمٍ تامٍ وسعادَةٍ أبدية.. أجلسُ معها من وقت الغروب حتى شروق الشمس، أقطعُ تلك المسافة يوميًا لنتسامر ونتحاور...

تتلاقى أعيُننا وتتحدَّث قلوبنا،

تتلامَس جوارحنا وتبتسِم مشاعرنا.

نضحك طويلًا وتبكي هي كثيرًا؛

تبكي خوفًا من الغد المجهول.

ولم يكن من سبيل سوى الهَرَب والرحيل! كانت بالفعل فكرة مجنونة ولكني أهلٌ لكل جنون.. هناك سنتزوَّج ونبتعد عن أعينهم، نتوارى خلف زحام المدينة ونحيَا في حُبٍّ إلى الأبد.

وفي اليوم المُحدَّد أعددتُ حقيبتي وتوجَّهتُ نحو مكان متوارٍ قد وصفَته لي مُسبقًا واتفقنا على اللقاء فيه ومن هناك

ننطلق نحو الحُب، نحو الحياة.. وبينما كنتُ في انتظارها مُترقِّبًا وصولها وقد ضربني إعصار من التوتُّر، وفي الوقت الذي كنتُ أرهف سمعي لذلك الحفيف المتسارع شعرتُ بحركة من خلفي، ولم تكتمل التفافتي؛ فقد فاجأتني ضربَة عنيفة على رأسي ترنحتُ على إثرها وسقطتُ أرضًا و... وفتحتُ عيني لأجدني مُلقَى ها هنا على هذه الطاوِلَة!

فجأةً دخلَت تلك المرأة ـ الخادمة ـ حاملة سكِّينًا ضخمَة وهي تقترب مِني في غضبٍ شديدٍ فرفعَتْ السكين عاليًا ثم... ثم قامت بتمزيق الحبل من على يدي وقدَمي وقالت وهي تبكي:

ـ أنتَ أيها الغريب السبب.. أنتَ السبب في فُقدانها، لقد قرَّروا التخلُّص منها بعد ما تأكَّدوا أنكَ قد شَرِبتَ من قنينتها، لقد قرَّرُوا الإطاحَة بكَ أنت أيضًا بعدها.. ثم بكَتْ في حرقةٍ واضحةٍ وأكملَت:

ـ لم تشأ سيِّدتي «حسناء» أن تكون سببًا في موتكَ فأرسلَتني حتى أفُكَ عنكَ قيدكَ وأساعدكَ على الهَرب، وأعطتني هذه الحقيبة لكَ، وأوصَتني أن أخبركَ أنها لم تعشق شخص قبلكَ وأنها قد وهبَت حُبَّها وحياتها لكَ، كانت تعلم هذه النهاية ولم تُخبركَ بها حتى لا تتعذَّب مرَّتين، و تُريدكَ ألا تنساها ما

حييت، ولئن تزوَّجْتَ ووهبك الله في يومٍ ما بطفلة جميلة اعتنِ بها جيِّدًا وقم بتسميتها «حسناء».

صمتت لتلتقِط أنفاسها ثم أكملَتْ:

ـ كما أنها تُريدكَ أن تَعِدها أنكَ لن تُحاول مساعدتها لأنكَ لن تستطيع الهرب من قدَر الله.. وأخيرًا تقول لك تذكَّر دائمًا تلك الجملة التي همسَت لكَ بها في أذُنكَ.. وداعًا يا سيدي «محمود».. وداعًا.

لقد مضى على هذا الموقف عشرة أعوامٍ كاملة أتذكَّرُها بين الحين والآخر، أتذكَّر تلك الأحداث الأخيرة وأنا أجلس داخل هذا القطار عائدًا للديار مُمسكًا بالحقيبة التي أعطتني إياها الخادمة، فنظرتُ لها طويلًا ثم فتحتُها في شغفٍ لأجِد بها لفافة غريبة.. ففككتُها سريعًا لأجد داخلها تلك القنينة التي تحوي داخلها شراب الحياة!

كانت دموعي تتساقط وتنساب وقتذاك بينما كنتُ أنظُر عبر زجاج القطار في هدوءٍ متذكِّرًا جُملتها التي همسَت بها لي...

« إن جاء يومُ الرحيل وكان قدرنا الفراق لا محال، اِعْلَم جيدًا أني حينها سأُضحي بكل ما أملك بل بأثمن ما أملك - روحي - في سبيل حُبكَ وحدَه.. فلا تنساني!».

ولا أعلم بعد تلك السنوات هل فقدتُها حقًا إلى الأبد، أم أن القدَر يحمِل لي مفاجأة؟!

⁂ ⁂ ⁂

القصة السابعة



«ورحلت»

اعتادَت عيناها ظُلمة الغرفة، لشَدَّ ما كانت تخشى الظلام، لكن هذه الليلة لم تعُد تخشاه بعد!

جافى النوم مُقلتيها، حاولتْ أن تغفُو ولو قليلًا، لكن تلك المشاعر الثائرة بصدرها وذلك الضِيق لم يمنحاها الفرصة؛ فشعرت ويكأنَّ صدرها يصَّعد في السماء، مدَّت يدها تضغط مِقْبس المصباح المستقر على الكومود، ثم التفَّت يسارًا تتطلع لوجهه النائم وقد غَطَّ في سباتٍ عميق.. فجأةً شرعتْ تبكي وتنتحِب في هدوءٍ، تتساقَط دمعاتها الملتهبة لتُحرِّق وجنتيها، وتصنع أخدودين مُتَقدين بهما.

أخذَتْ تتذكَّر حياتهما الهادئة وزواجهما السعيد، فكم تُحب هذا الرجل!

كم تُحب قُوَّته!

كم تحب رجُولته وطيبته!

كانت تتذكَّر حُبهما الراسخ، وعلاقتهما القويَّة، ومعاملتهما الطيِّبة، وبيتهما السعيد.. تعلم أنَّه قد تحمَّل منها الكثير، ورغم ذلك ظلَّ مُتشبثًا بها فحُبه لها قد تخطَّى حدود العقل!

شهور مضَت وهو صامِد أمام عُنفها وتوتُّرها اللذين لا ينتهيان، كان حِلمُها كأي أنثى أن تصير أمًا، تتهلَّل أساريرها بأول شعورٍ بالغثيان، تفرح بتكوُّر بطنها وتمدُّدها، تبتسِم مشدوهة مع أول ركلٍ لجنينها، وتضحك حينما ترى بصمة كفِّه الرقيق تطبع على جدار بطنها الخارجي لكن... لكن لله أمور يُبديها ولا يبتَديها، فلحكمةٍ لا يعلمها سواه لم يُقدِّر لها ذلك الحلم!

فأصابها اليأس، وأخذَتْ براثِن الوحدة تنهَش بجسدها الذي أخذ في النحُول، بدأتْ تغزوها العُزلة، وترسم عليها ملامح الاكتئاب رُوَيدًا رويدًا حتى حُفرت على وجهها خطوطًا تحاذي خطوط الزمن!

تلك الزهرة اليانعة مُنعَت عنها السُّقْيا فبدَت ذابِلَة، ومائلَة، ومُصْفَرَّة!

أما هو فمازال مُتجلدًا دائمَ الابتسام، ضحكته حاضرة، يحتويها بنبع حنانه الذي لا ينضب، وفيض حُبِّه الذي لا ينتهي، وكلما ازداد فيها حُبًا ازدادت هي عُنفًا وشراسةً، فما كان منه إلا أن يُثابِر ويتجلَّد.

لم تكُن تشعُر بنفسها عندما ألقَت بجسدها في صدره الحنون تجْهش ببكاءٍ حارٍ ملتهب، فقام من نومهِ فزِعًا على صوت نهنهَتِها، وقبل أن يستفسِر عن حالها ضمَّها إليّه وأحاطَها بذراعيّه واحتواها وهو يُهدهِدها قائلًا:

- ماذا بكِ حبيبتي؟ ماذا حدَث؟

في بكاءٍ مريرٍ ردَّت:

- لا شيء.

- لا شيء؟! أراكِ تبكين في ظُلمة الليل الحالِكَة، وتُخبرينني أنّه لا شيء؟!

اعتدلَتْ تمسح دمعاتها، نظرَت إليّه وقدْ كسَى الشوقُ ملامحها، فمدَّت يدها نحو وجهه وهي تُحاول عبثًا الابتسام، وربتَت بكفِّها البض على وجنته ثم قالت هامسة:

- كنت أذكُرُكَ بصحوي، كما تُذَكّرُني أحلامي بك! أتذكَّر أيامنا الخوالي، وأشتاقُ لها كشوق الأم لولدها المغترِب!

اعتدلَ من نومَته والتقطَ كفَّها وقبَّل راحته في حُبٍّ امتلكه ثم قال في حُبٍّ وشجَن:

- حبيبتي أخبريني لماذا تبكين هكذا؟ ألا تعلمين كم أتعذَّب وأتألَّم مِن حالتك تلك؟

عادت لبُكائها مُجددًا ثم أجابَته من بين نشيجها وأنفاسها الملتاعَة:

- أعلم أنكَ تحمَّلتني كثيرًا، وتحمَّلت غضبي، لا أنكر عليك مُعاناتك مِنّي.. نعم أعلم ذلك جيدًا!

صمتَت بُرهةً وعادت تتطلَّع إلى ملامحه بعينين تلبَّدت بغيْماتٍ وسُحب سريعًا ما أسقطت ما تحمِلَنَهُ!

دفنَت رأسَها في صدره، وبلَّلَت دُمُوعها منامته، ثم استطردَت من بين دموع حارة، ونهنهة مُؤلمة:

- أعطيتني ما لمْ يُعطنيه شخصٌ سواك، منحتَني حنانًا لو وُزِّع على هذا الكون لكفَّاه رغم قسوَته هذه، أسقيّتَني حُبًا مِن نبعك الصافي الذي لا يغيض، شملتَني بنُبل أخلاقٍ عجزتُ عن وصفه، وغلَّفتني بطيبةٍ لم أرها في مكنون بشَرٍ، أعترف أنِّي لطالما كنتُ مُقصِّرة في حقِّكَ وياليتني وفَّيتُ لكَ قدركَ الذي تستحق!

رفعَتْ رأسَها تنظُر لعينيه العميقتين، ثم دفعَت بنفسها مرةً أخرى في صدره وأردفَتْ بنحيبٍ ونشيجٍ قذَفَا بقلبه التوتُّر:

- لقد عاملتَني لكأني أميرَتك ورغم ذلك لم أُنجب لكَ طفلًا تحمل ملامح وجهه قسماتكَ، فاحتسبتَ أنتَ بكرَمٍ ودينٍ لم أعهده على مخلوق من قبل، وتحمَّلت إيذائي لك في صمود قد أخجلني!

وا زوجي الحبيب.. أنا لم أحب سواك، ولم أشعُر بالأمان إلا وأنا بين يديكَ وفي صدركَ، فأنت زوجي وقُرَّة عيني وروحي، أريدكَ أن تعلم شيئًا، أنّي كنت أغارُ عليك ومازلتُ أغار، بل وسأظل أغارُ عليكَ في كل وقتٍ وكل حين!

سأظل أغارُ عليكَ في حياتي، وفي مماتي وفي...

وفي قبري!

نعم قبري فأنا ذاهبةٌ لا محالَة فلا تنسَاني، وتذكَّر دائمًا أنِّي أحبك وما أحببتُ أحدًا سواك.

ضمَّها لصدره في قوَّةٍ، ثم قال بصوتٍ تهتز نبراته بعدما تملَّك منه الهلَع:

- حبيبتي لا تقولي هذا، ستعيشين مَعي في بيتنا وسنُرزق بطفلة حسناء تحمل وجهكِ الملائكي هذا، سنحيَا سوِيًا حتى تنكمش جُلُودنا، وتتجعَّد أطرافنا، ويكسو الشيب خصلات شَعرنا.

كانت لكلماته وقعًا واضحًا عليه، فجاءت مزيجًا بين العذوبة والشجن الأمر الذي دفعه للانفعال، فضمَّها أكثر لبراح صدره واستطرد:

- أخبريني بربِّكِ، كيف سأعيش دونكِ وأنتِ معنى الحياة، بل كيف سأعيش دونكِ وأنتِ معنى الحب والإخلاص، ومعنى الوفـ...

حبيبتي؟!

حبيبتي لماذا لا تُجيبيني؟!

حبيبتي

حبيبـ...

ولم يكُن هناك من يرُد على نداه بجوابٍ!

فقد تركَته ورحلَت...

إلى الأبد.



القصة الثامنة



«أم رتيبة»

على استحياءٍ وثَمَّة ابتسامة توتُّر تحتل وجهَه، حوَّل نظرَه لتلك الأطباق التي افتُرِشَت بها المائدة، يتطلعْ إليها في قلقٍ.

لم يتحمَّل كل تلك المعاناة، ولا يصرُخ في وجهها بقوَّةٍ كأي رجلٍ شرقي أصيل ويُخبرها أن طعامها سيءٌ للغايَة وأن علاقتها بالطهي كعلاقة أمِّي جاهل لا يقرأ ولا يكتب ويمسك بيده كتاب «أينشتين والنسبيَّة»!

مَنْ ذاك الأحمق الذي ابتدع مقولة أن «الغضَب حماقَة»؟

فليس كل الغضب حماقة.

كم ودَّ لو أن ألقى تلك الأطباق في وجهها ليُلقِّنها درسًا عنيفًا حتى يُبرِّد من نيران غضبه المتأجِّجة.. حقًا ليس كل الغضب حماقة، كما أنه ليس بأحمَقٍ.

عليه أن يتحمَّل فظاظتها،

عليه أن يتحمَّل سطوتها،

وعليه أيضًا أن يتحمَّل وقع اسمها على أُذُنه!

«أم رتيبة»!

يا له من اسمٍ أحمَقٍ يُشعرك أنها جاءت من رحم نَسل ريَّا وسكِينة!

نعم هو ذاك الرجل الخلُوق الذي يُريد أن يحيَا في هدوءٍ، ولكن بِلا «أم رتيبة»، وبلا مواقفها السيِّئة معه ومع جيرانها!

كانت «سماح» جارتها - تلك الفاتنة - دومًا تُلقِي عليها التحيَّة حينما تتقابلان على الدَرَج أو بالمصعد، فكانت تتحدَّث بصوتٍ عذب يُذكِّرك بإحدى معزوفات موتسارت الساحرة، فيخرُج من حلقِها الكلام ويكأنَّه ألف ألف كروان يشدُو!

كانت تنظُر إليها بتشَرُّس وتذمُّر، تُزمجِر وتخُور كَثورٍ هائِج، ثم ترُد التحيَّةَ بردٍ مُقتضب، وظلَّ الحال هكذا حتى جاء

يوم أوقفَتْه فيه لتسأله عن شيءٍ خاص باستخراج بعض الأوراق لأنه يعمل بالسجل المدني، فسمعَتهما من وراء الباب ففتحَته فجأةً! كان موقفًا مضحكًا للغاية...

فقد انقضَّتْ على زوجها لتُطيح به أرضًا بقبضة ساحِقة بين عينيه، ثم التفَّت إلى تلك المسكينة لتدهسها كحافِلة ضخمَة فقدَ قائدُها المقدرَة على السيطرَة على مِقْوَدها ومكابحها!

هكذا انتقمَت «أم رتيبة» منها...

كسرَت ساقيها!

هشَّمَت عظام قفصها الصدري، إضافة لجروح وجهها وتورُّمه!

المُدهش أنه ورغم تلك الحياة المملَّة تحمَّل تلك الضغوط التي تتعمَّد صناعتها وإلقائها دائمًا بين يديه وعلى عاتقهِ، لكن... كل تلك الضغوط والمصائب شيء وأن يعُود من عملِه وبعد انتهاء يومٍ مُرهقٍ عصيبٍ ثم يجد تلك الأصناف الغريبة والمقزِّزة من الطعام والتي تبتكره شيء آخر!

الغريب أنها تعتقد بل تؤمن بجودة ما تصنَعه تمامًا كـ «شيف» في مطعم «٧» نجوم، والأغرب أنهُ دائمًا ما يتحمل صنيعتها!

تذكَّر ذلك اليوم عندما أخبرَها - مازحًا - أن الطعام ينقُصه بعض المِلح ثم ليجدها في اليوم التالي أنها ربما استعانت بالإنتاج اليومي كاملًا لشركة الملح والصودا لتضعه على طعام الغداء، وحينما نظرَ إليها مُحاولًا الشكايَة حتى بالنظرة، زجرَت له وزمجرَت وكأنَّها ستفترسُه، وما كان منهُ سِوى أن يتجرَّع ما يقرب من عشرين لترًا من الماء ليروي بها ظمَأه عقب تناوُله الطعام كاملًا!

تذكَّر ذلك وهو ينظُر للمائدة في امتعاض، رفع رأسَه نحوها لينظرَ إليها فوجدها تقفُ شامخَة مُنتظرة تعليقَه على الطعام الذي بذلَت فيه جُهدًا مضنيًا حتى تُخرجه بذلك المذاق الخلَّاب!

ترفع أحد حاجبيها لأعلى، تنظُر إليه نظرةً مُخيفةً من شأنها تجعله يُعيد حساباته ألف مرة قبل أن يُقدم على عمل مُتهوِّرٍ!

كان هناك سكينٌ حادٌ بيدها اليمنى التي أراحتها إلى جانبها، بينما تجمَّعت قطرة من حساء الشوربة على سطح تلك (الكبشة) التي خلدت بين يدها الأخرى لتُلقي بحتفها ساقطة على الأرض فتنظُر إليها في قسوَةٍ عجيبة وكأنها ستنتقِم منها - القطرة - لسقوطها أرضًا.

في شراسة تدُق بمشط قدمها اليُمنى في سُرعةٍ ساعدَت كثيرًا على زيادة توتُّره.

رفع تلك الملعَقة أمامَ عينيهِ في قهرٍ لم يظهر على وجهه ثم نظر لسطحها المُصقل الناعم والذي عكس وجهه بشكلٍ مقلوب فما كان منه سوى أن يمد يدَه نحو حساء الشُوربة...

ما هذا؟!

هناك شيء يطفُو فوق السطح!

شعرَ بالغثيان!

حدَّث نفسَه بهذه العبارات وهو يُقحِم الملعقَة داخل الحساء، ثم وفي تردُّدٍ شديد أخذ يُقرِّبها نحو فَمه خائفًا أن يفرغ ما بجوفه داخل الحساء! أدخل طرف الملعَقة داخل فمه وهو ينظُر إليها مُبتسمًا، ثم أغلق فمَه على سطحها وفي قهرٍ شديد ابتلَع الكميَّة وهو يدعُو الله بأن لا يظهر على ملامحه أثر ذلك الحساء المقزز!

بدأ بحَل زِر منامته الأعلى؛ لشعوره بالاختناق وثَمَّة قطرات من العرق بدأت تظهر على جبهَته، مازالت ترمُقه وتُكشِّر عن أنيابها مُعربةً عن نِيَّتها.

ما هذا أيضًا؟

«الأرز نيء!».

وما الجديد؟!

أخبر نفسَه بذلك وهو يُجاهد في ابتلاعه، نظر إلى ملامحها وهمَّ بقول شيء ما، لكنها قاطعَته بزمجرةٍ وهمهَمةٍ غير مفهومة وهي تُشير بـ (الكبشة) نحو الأطباق ففَهمَ مغزى الإشارة!

عليه بتناول الأطباق جميعًا!

نظر على يمينه طالبًا النجدة والعون من ابنهِ الصغير، فوجده ينظُر إليه متشفيًا وهو يمصمص شفَتيه مُستمتعًا بذلك (العك) الذي صنعته أمُّه.

كم أنتَ بغِيض أيها الخرتيت الوقِح، أتتشفَّى من أبيك؟

شعر بمرارةٍ في حلقهِ أجرَت الدماء الغاضبَة في عُروقهِ حتى وجد نفسَه مُتحمِّسًا وبشدَّة لصفْع ذلك الوغد الصغير ومن ثَمَّ الإطاحة بأنثى فرس النهر هذه.

اختمرت الفكرة في لحظةٍ فوقَف في غضَبٍ عارِم مُتذكرًا تلك الأعوام التي قضاها في صمتٍ يفعل كل شيء رغمًا عنه!

يأكُل رغمًا عنه،

يشرب رغمًا عنه،

ويصمت رغمًا عنه...

ألقى بالملعقَة أرضًا وهو ينظُر لابنه في غلٍّ وغضَبٍ بلغَا ذروتيهِما، أخذ تلك الخطوَة ليمسكه من تلابيبه ويطيح به أرضًا بصفعةٍ قويَّة، التفتَ إليها في وحشيةٍ حقيقية استغربها في نفسه، ورمقها بنظرة ناريَّة جمَّدت الدماء في عروقها حتى أن السكين سقطت من يدها وهي تعُود إلى الوراء في خوفٍ، فلانَت ملامحها فجأةً واعترى وجهها ملامح الضعف والقلَق!

ظلَّ يقترِبُ منها وهو يُلقي على مسامعها عباراتٍ غاضبة قد شملَها بعض السُباب كانت (محشورة) في حلقِه وجوفِه، توقَّف أمامها ونظرة شر مُخيفة أطلَّت من عينيه، رفعَ يده وهوَى بها بكل ما أُوتي من قوةٍ ليلطم وجهها في قسوَةٍ شديدة اقتلعتها من وقفتها لتطير نصف مترًا على الأقل وتسقُط مجهشةً في البكاء ثم...

لماذا تَنظُر إليَّ هكذا؟

أجننت أنتَ أم ماذا حدثَ لك؟

لماذا لا تتكلَّم؟ هل أصابكَ الصمم؟ هاه.

قطعَت بتلك العبارات حُلمه الجميل بتلقينها درسًا قاسيًا، نظر للملعقة في شرودٍ تام والتي مازالت تحمل الأرز فأفاق

دفعةً واحدةً وكأنَّه استيقظ من حلم عميق، نظر إلي ابنه في صمتٍ فوجده مازال يبتسم مُتشفِّيًا، فأدار وجهه إليها ليرسم ابتسامةً مُصطنعة ويضع الملعقة في فمه ويبدأ المضغ، ثم أشار لها بإبهامِه علامة الاستحسان، وانكبَّ على الطعام كحيوانٍ شَرِه وهو يلعَن في سِرِّه بقهرٍ ويأسٍ مُستسلمًا، يلعن تلك اللحظة التي رأى فيها زوجته الطروب.. «أم رتيبة».



القصة التاسعة



«نقَاب خَالتي الحَاجة»

ترجَّلتُ من الحَافِلة في ضجرٍ وآثرتُ استكمَال مسيرَتي للعودة إلى المنزل سيرًا على الأقدام.. الجو مُشمس وثَمَّة تيَّار بارِد يضرب الأجواء يُشعرك بمُتعة الطقس الرائع لولا وجود ذلك الازدحام المروري وتكدُّس السيارات، الأمر الذي يدفعك للسخط العَارم على السائقين والناس جميعًا والحكومة والبلد بِمَنْ فيها!

كنتُ أسير في سُرعةٍ مُتوسِّطة أتَّخذ طُرقًا مختصرة؛ تجنبًا لهذا العبث الفوضوي الذي شعُرتُ معه - ورغم تحسُّن الطقس المائل للبرودة - بحبَّات العرق البَاردة قد بدأت تتصبَّب وتتسَابق بشكلٍ طولي في ظهري بتجويف عمودي الفقري تمامًا، مما أثار حنقي ولاسيَّما بنضوحها أيضًا على جبهتي.

- أستغفرُك ربي وأتوبُ إليك.

هكذا تفوَّهتُ بها في غضَبٍ حانِق بيني وبين نفسي، ألعَنُ تلك الزحمة، وهذا الشعب الفوضوي، مثلي مثل كل الساخطين على هذا البلد.

وبينما كنتُ أنحرِف يمينًا متخذًا ذلك الشارع الضيِّق دربًا للابتعاد عن نفير السيارات المزعج، وعن عدم الاصطدام ببعض الدرَّاجات الناريَّة التي جعلت من الرُصْفان مرتعًا ومتنزِّهًا، وبالأخير تجنب رائحة عرق هؤلاء البشَر المزعجين.. ظهرت أمامي فجأةً وانبلجت من العدم!

ما هذا العبث؟!

كانت تتقدَّم نحوي في سُرعةٍ كان معها الاصطدام وشيكًا، تحركتُ بسرعةِ استجابة عالية بقدرٍ ما، فالتففتُ على قدمي اليسرى عائدًا بظهري إلى الوراء في مُحاولة - صعبَة - لتجنُّب الاصطدام بها، كادت تلك المحاولة تفلح لو أنها حاولَتْ التوقُّف!

لكن مع اندفاعِها القوي كانت تبدُو كأنما انطلقَت من وترِ قوسٍ مشدودٍ، فاصطَدم جزء مِن جسدِها بذراعي الأيمن وبجُزء من كتفي أيضًا.. كنتُ قاب قوسَين أو أدني من السقوط

أرضًا بعدما تعركَلتْ قدمي بذلك النتُوء البارز من الرصيف، فأتيت بحركاتٍ بهلوانيَّة بذراعيّ أحاول ضبط اتِّزاني و... ومدَّت هي يدَها لتقبض على معصمي وتجذِبني قبل السقوط!

وقفتُ أردِّد الحمد والشكر لله وأنا أرفع رأسي نحو وجهها مرةً أخرى.

ما هذا العبث؟!

نعم وكما لمحتُها منذ لحظات، كان وجهها ملفَّعًا بالسواد، ترتدي ثوبًا مُلفتًا بشكلٍ مُثيرٍ للغضب!

أي نقابٍ هذا؟!

بل أي لباسٍ هذا؟!

«أنا أسفة».

هكذا قالَتها بصوتٍ ناعمٍ مُتوتِّر!

شعرتُ برغبةٍ عارمَة لصفعها بكل ما أوتيتُ من قوَّة، ليس هذا لاصطِدَامها بي على أية حالٍ بالطبع، لكن من ذلك المنظر التي ظهرَتْ عليه!

نعم لستُ مخولًا بالنهي أو الأمر، ولكن صدقًا الوضع أقوى من رغبتي في الالتزام بالهدوء، لذا لم تُثنيني - رغبتي تلك - عن الشعور بذلك الغضَب الذي سرَى بجسَدي!

بصوتٍ خلا من أي تعبير:

- خيرًا.. أحمَد الله.

بدَت مُتوترة يسيرًا وهي تحاول الاطمئنان عليَّ قائلةً:

- أعتذِرُ لكَ فلم أستَطع أن أتفَادى هذا الاصطدام، أريد أن أطمئن عليكَ، هل أنتَ بخير؟

كنتُ في حيرةٍ من أمري!

هل أعنِّفها على لباسها بشكلٍ متوارٍ دون التلميح، مُتَّخذًا اصطدامها بي مطيِّة؟ أم أظهر بمظهر ذلك الواعظ الدينيّ الذي لا يفُوته هذه الفرصة الذهبيَّة للنُصح والإرشاد؟!

حقيقة أنا لستُ هذا ولا ذاك، لذا كنتُ مُقتضبًا وأنا أخبرها:

- أنا بخير.

هكذا لا بُد أن ينتهي الأمر ويتحرَّك كلانا كلٌ في طريقِه، لكن يبدو أنها ترنُو لشيء آخر! أستَطيع ملاحَظة هذا جيِّدًا،

ليست ثَمَّة براعَة مِني، ولكن لأن ذلك الأمر المُبهَم الذي جعلها تتسَمَّر مكانها دون الالتفَاف والسير قدمًا نحو طريقها، هو أيضًا ما جعلني أقِف مكاني مُنتظرًا أمرًا لا أعلمه!

في شيءٍ من الضِيق سَألَتني:

- يبدو عليكَ أمارات الحنق رغم أني أبديتُ أسَفي واعتذرتُ، فلمَاذا تبدو هكذا؟!

كانت ترتدي ثوبًا زاهيًا ضيِّقًا نوعًا ما، برزَتْ معه مفاتنها بشكلٍ لا يتنَاسب مع كونها مُنتقبة، لاسيَّما بنقابها القصير الذي لا يصل إلى جَيبها، في الوقت الذي ظهَرت من تحته كامل عينيها الواسعتين المُكحَّلتين بلون أسوَدٍ قاتِم ملأهما بكثافةٍ، وملأ جفنيها أيضًا فبدَت بكامل زينتها، وزاد شعوري هذا مع رائحة عطرها الأخَّاذة التي انتشرت على طول ذراعي الأيمن وكتفي في موطِن اصطدامها بي!

مِلتُ برأسي طفيفًا ناحيَة اليمين وأنا أمطُّ شفتيَّ مُستغربًا، رافعًا أحد حاجبيَّ ومُطلقًا نظرة اندهاش، الأمر الذي دفعَني لكي أبتسِم في استهجانٍ قائلًا:

- لماذا أبدُو ماذا؟

كنتُ أتحاشَى النظَر إليها، فبينما كنتُ أخفض عينيَّ أرضًا، جذب انتباهي أسورَة من الذهب طَوَّقت كاحلها الأيسر، لمحَتْ نظراتي المستهجنة على لباسها وملاحظتي لتلك الأسورة فقالت بشيءٍ من الحِدَّة:

- ألا يعجبكَ كوني منتقبة؟ أراكَ تنظُر إليَّ مُتأففًا، فهل تشعُر تجاهي بالتقزُّز؟ أم ماذا.. هاه؟ هل أخلع نِقَابي حتى تشعرون بالراحة؟! أنتُم لم تـ...

قاطعتُها في غضَبٍ:

- أي نقَابٍ هذا الذي تتحدَّثين عنه؟! بل أي ثيابٍ تلك التي ترتدينها؟ أهذا هو النقاب الذي ارتدينه زوجات النبي؟ ألم تنظُري بمِرآة غُرفتك قبل نزُولِك؟

كانت تهزّ قدمَها اليُمنى في حنقٍ بدا واضحًا في نظراتها الغاضبَة، ثم تقدَّمت خطوةً بمحَاذاتي لتقول في صوتٍ خفيضٍ لكنه جاد:

- أنا لستُ مضطرَّة لأبرِّر موقِفي، لن أقول لك هذا ليس من شأنك لأني أحفظ أدَبي، ولكن سأقول لك ما قد تحتَاج أن تتعلمه!

أطلقتُ ضحكةً متوتِّرة:

- فاقِد الشيء لا يُعطيه، كيف تُعلِّميني ما تفتَقِرينه أنتِ؟ ما الفرق بين طلَّتكِ الآن وبينها لو خلعتِ هذا النقاب؟ حضرتِك حتى لا ترتَدينَ قفازًا!

في غضبٍ:

- وهل أنت رسول الإسلام والآمِر بالمعروف والناهي عن المنكر؟

ابتسمتُ في هدوءٍ ثم تحدثتُ إليها:

- نحن سُفراء لدينِنا وإسلامنا، وسَمتُ المسلِم معرُوفٌ ولباس المرأة بالإسلام معروف أيضًا، وما أراكِ ترتدِينه لا يمتُّ للإسلام بصلَةٍ لا من قريبٍ أو من بعيد، ثم وأنَّ الله قد نهى عن ارتداء أسَاور القدم كالتي تضعينها أنتِ بكاحلكِ.. يقول الله (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ).

ردَّت في استغرابٍ شديد:

- منهِي عن ارتدائه! هل أنتَ مُتأكِّد من هذا؟

حقيقة كان إحساسي مُتناقضًا ما بين حنقِي لسؤالها وبين حماسة دبَّت داخلي، فاستطردتُ مُجيبُها بلهجةٍ بها مسحة لاذعة:

- أقول لكِ قال الله وتسأليني هل أنا متأكِّد أم لا؟ وهل هذا فقط ما لا تعرفينه؟ نقابكِ لا يُغطِّي منطقة الجيب، ولا ترتدي قفَّازين، ولباسكِ ليس فضفاضًا، بل إنه يصف ويشف ما تحته، وبالأخير نصف وجهكِ يظهر من تحت نقابكِ، فأي دين هذا الذي شرَّع هذه الثياب؟

قالَت في عناد:

- ولكن ديننا يُسْر وليس عُسْر، والله يعلم ما بقلبي، ثم أنني لستُ بعاريَة، أم أنَّ لكَ رأيًا آخر؟!

سيطرَت عليَّ مشاعر الهدوء ولم أعلَم مصدرها، ولم يشغلني حينها، فأجبتها في هدوءٍ:

- نعم إن الله لا ينظُر إلى أجسَامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظُر إلى قلوبكم.. نعم أعلم هذا ولم يجعلني الله قاضيًا وحاكِمًا وجلَّادًا، وكما أخبرتكِ آنِفًا نحن سفراء لدِيننا فدعيني أسألكِ في أمرٍ ما وبعيدًا عن القلوب...

هل تعتقدين أنكِ سفيرة لدينكِ؟ هل إذا ما قُورنت المنتقبات الحق وردائهن بردائكِ هذا فلِمَن ترجحُ الكفَّة يا تُرى؟

في إذعانٍ وصدق:

- هُنَّ ولا شك.

سُرَّت ملامحي إثر قولها فأومأتُ برأسي استحسانًا قائلًا:

- هذا قولٌ صِدق وقولٌ فصل.

في خجَلٍ قالت:

- نعم أعلم هذا، نحن نجتهد قدر استطاعتنا، فعلينا السَعي وليس علينا إدراك النجاح، أسأل الله الثبات.

ظللنا نتحاوَر بعض الدقائق الأخرى حول الإسلام وكيف نكون سُفراءً له، وعندما هممتُ بالانصراف بعد هذا الحوار السريع، ابتسمتُ إليها في ودٍّ عكَسَ صفَاء نيتي، ويبدو أنها تقبَّلتها في أريحيَّة لأنها ابتسمت هي الأخرى، فشكرَتني واعتذرَت لي عمَّا بدَر منها من غضبٍ وحِدَّة، ثم مدَّت يدها نحوي لتُصافحني، أطلقتُ ضحكةً عابثةً لكنها جاءت هذه المرَّة بودٍّ حقيقي، فنظرتُ نحو يدها الممدودة ومططتُ شفَتيِّ في مزاحٍ أدركَتْ معه ما قصدتُه، ثم قلتُ وأنا ألتفُّ مغادرًا:

- النبي قال إني لا أصافح النساء.. السلام عليكم.

⁂ ⁂ ⁂

القصة العاشرة



«السيد المُدير»

انتفختْ أوداج السيد المدير بينما شعر بسعادة جمَّة كادت تُردِيه قتيلًا بعد أن حيَّاه الموظفون، وهنئوه بمنصِبه الجديد، وأمطرُوه بعبرات الحفاوَة والترحيب، وأخبرُوه أنه إضافة للمكان لارَيب!

وقف هُنيهةً ينظُر في فرحةٍ انتصبَت لها منابِت شعره كاملة بعد أن أغلق الباب خلفه، كان يتطلَّع لتلك اللوحات التي ازدانت بها جدران المكتب ولم يكن ليُصدِّق هذا حتى أنه أغمضَ عينيه وردَّهما ليتأكَّد أنه مازال مُستيقظًا، وأنه بالفعل يقف في مكتبه الجديد ويرى أمام ناظريه مقعَده الجلدي الوثير ينتصف ذلك المكتب الضخم.

أخيرًا وصلَ لمبتغاه!

أخيرًا سيجلس على ذلك المقعد الذي لطالما كان يحلم به ومن أجله قدَّم الغالي والنفيس حتى يرتقيه، الأمر الذي دفعه ليُقدِّم سلسلة مِن التنازُلات والتضحيات المُخذلة والتي وصلَت به لحد إهانة النفس ووَطء الكرامة!

ذاك الشخص الذي ذاقَ وَيلات الانضباط والالتزام في عمَله، هو هو ذاك الشخص الذي كفرَ بمبادئه عن بَكْرَة أبيها وبدأ يُؤمن بمسمَّيات جديدة طرأَت على حياته وطرقَت باب عقله عنوَة!

وماذا في هذا؟!

فلم تشفع له أمانته ومثالِيَّته اللتان كان يتعكَّز عليهما في مُواجهة جيشٍ جرَّارٍ من أُناسٍ يتجرَّعون من كأس الفساد تجرُّعًا!

ولماذا يظل يحمل لِواء الانضباط والاحترام طالما لا يُقدِّره أحد حقَّ تقدير؟ وماذا سيجني من هذا الهُراء المسمَّى بالمثالِيَّة.

تذكَّر سنوات الشقاء والتعب التي صارت من بُؤسها كبحرٍ لُجِّي شرع الغوص فيه حتى وصلت مِياهه إلى حقويه، سيختنق لا محالة..

سيغرق لا محالة.

سيموت تاركًا إرثًا زهيدًا من السيرة الطيِّبة التي لن يتذكَّرها أحدهم.. تقدَّم بخطواتٍ تبدو مُتراجعة، فالتوتُّر يملأه، الرهبة والانفعال يعصفان به كسفينةٍ تتلاعب بها الرياح والأمواج! وقف جانب المقعد ذو الظهر الطويل الوثير لا يُصدق عينيه، رفع يده في تردُّدٍ ومن ثَمَّ أراحها على المقعد وبدأ يمرر ويمسَح بكفه عليه، ينظُر له وبريق عينيه يطغُو على إضاءة ثُريَّا المكتب الفخمة، انفعال جارف التفَّ وغلَّف قلبَه الذي تسارعت دقاته في قُوةٍ فأخذ يلهج وصدره يعلو ويهبط.. أخذ خطوة أخرى وهو يقول بصوتٍ جذل:

- وا حبيبي الغالي، لكم تمنيتُ كثيرًا تلك اللحظات الفارقة في حياتي، كم عانيتُ من أجلكَ ومن أجل مجاورتكَ وملازمتك! كم تحمَّلتُ الصعاب وبذلتُ ما بوسعي من جُهد حتى أرتقيك! تذوَّقتُ مرارة تلك السنون العجاف حتى صار حلقي لا يعرف طعمًا غيره، الآن فقط أشعُر بالانتشاء، الآن فقط أشعر بأنك ما وُجِدْتَ سِوى لتكون لي منذ البداية، لم أُخطِئ حينما تنازلتُ عن مبادئي التي توهَّمتُ أنها مُؤكدًا ستوصلني لأعلى المناصب والدرجات!

حقًا كان وهمًا.. وهمًا خادعًا، وغباءً مُستحكمًا، ومبادئًا فارغَة لم تُكن لتجدي، الآن قد صرتَ مِلْكًا لي إلى الأبد، الآن فقط قد بدأ عصرٌ جديدٌ من القسوَة والقوة.. نعم قسوة وقوة لأذيقنَّها كل من يعمل تحت إمرتي، ستشهدون أوقات عصيبةٍ ومريرةٍ وصعبة حتى تُدركون كم كُنتم أغبياء حينما أوليتمُوني ظهوركم وسخرتُم من مِثاليَّتي، وعاملتمُوني كشخصٍ ضعيفٍ أبلَهٍ مسكين، لن يقوى على مُجابهتكم، ستصيرون الآن أوفياء لي، تُقدِّمون فروض الطاعة والولاء، ستُسبِّحون بمجدي وتستنيرُون بآرائي ولن تخطُوا في حياتكم خطوَة إلا بإذني.. أنتم من أردتُم هذا.

أخذ نفسًا عميقًا وثَمَّة نظرة هي مزيج مُختلط من الشر والتمكين والسُخريَة ملأت عينيه، وظهر شبح ابتسامة قاسيَة على ثغره، فأعاد المقعد إلى الوراء وجلس عليه في اعتزاز وهو يُعدِّل من رباطة عنقه وبصوتٍ قويٍ رزينٍ وبعد أن ضغطَ زِر الهاتف الداخلي لمكتَبه لتسمعه سكرتيرة مكتبه يطلُب آمِرًا فنجانًا من القهوة التي لم ينسَ أن يجلبها معه!

اجتمع المُوظَّفُون وسادَت حالة من الهرَج والهلَع داخل مكتبه ومازالَت تلك السكرتيرة تحمِل القهوَة في يدها وعلى وجهها ظهرَت علامات الذهول الشديد!

لم تُدرك شيئًا سِوى انطلاق حلقها بصرخَة شديدة كقُنبلة انفجرَت في سكون الليل، ذلك عقب دخُولها المكتب حامِلَة طاولة القهوة لتجد السيد المدير عائدًا بظهره إلى الخلف وقد جحظَت عيناه عن آخرهما بشكلٍ مُخيف، وحُلّت رباطة عنُقه يسيرًا!

لم تعلَم وقتها أنَّ علامات الوجَع والألَم تِلكُم التي ملأت وجهَه والتي لم تُلاحظهما مع هَول الموقف ما هما سِوى علامات الموت إثر أزمَة قلبيَّة مُفاجئة أودَت بحياتِه!



القصة الحادية عشر



«اليقين»

لم أكُن أتوقَّع أن تتساقط دمُوعي في سلامٍ واستسلام هكذا دون أن تطرُق باب عينيّ، بل لم أكُن أتخيَّلُ أن أُصاب بذلك الشعور المُوجِع الذي اقتحمَ صدري دون استئذان عندما رأيتُها**!** شعورٌ قاسي أدمَى قلبي وسكنَ جوارحي وكسَاني بحُزنٍ عميقٍ شعرتُ معه بالألَم.

كانت تتشح سوادًا غطَّى جسدَها حينما وقعَت عيناي عليها، ليس مصدره تلك العباءة المرقعة والمغبرة التي كانت أقرَب ما تكون إلى ماسِحَة للأحذية المتسِخَة، لكن سواد وغبار يبدو أنهما اختلطا بكل ذرةٍ من جسدها؛ فكساها بطبقةٍ وكأنها طين مُزج بالشحم ـ بل على الأرجح أنهما كذلك ـ، أما ساعديها

مُتشمِّري الأكمام فقد تحوَّلتا إلى شبكة مُتداخلة من العروق النافِرة تدل على نحافة ذلك الجسد البالي...

كانت تربط شعرها الكثيف المتهدِّل بجُزء يسير من بقايا تلك (الطرحة) الباليَة ذات اللون الأرجواني الباهِت دون عنايةٍ فكان مظهره مُجعدًا، مُلتصقًا، يبدو كأنه لم يتخلَّله الماء أو يُمشَّط منذ دهر، فبدَت رأسها أشبه بشجرةٍ عظيمةٍ مُتشابكة الأغصان أصبحت مرتَعًا لفضلات الطيور التي تأتيها من كل حَدب وصَوب.. لها عينان جاحظتان تُذكِّرانك بمن فقد خوذته على سطح كوكب المريخ الذي لا يسكُنه الأوكسجين، أسنانها متآكِلَة ينخر فيها السوس الشَّرِه وتكسُوها طبقة من الجير السميك مُترامي الأطراف نتيجة الإهمال فتغير لونها من الأبيض الناصِع لتصير سوداء كقلب الليل المظلم.

نظرتُ لها في فضولٍ طبيعي عن كَثبٍ حينما كنتُ أمُرُّ بجوارها فلفتَت نظري تلك النظرَة الخاويَة التي تطلُّ من عينيها، توقَّفتُ بُرهةً مُتوجِّسًا ثم أخذتُ أراقبُ تصرُّفاتها وما سوف تُقدِم عليه.

كانت تقترب من ذلك الصندوق الضخم في هدوءٍ وهي تجُر قدَمها جرًا فتبدُو كمن أصيبت بجرح في قدمها، فلم تكن تلك (العرجة) الصادرة من حركة قدمِها اليُمنى طبيعية!

تحرَّكتْ عيناي سريعًا نحو قدمها فوجدتُها تكاد لا ترتدي حذاءً اللهم إلا بقايا خُفٍّ مُزرِي الشكل بدَت منه أصابعها مُتورِّمة ومُتَّسخة بشكلٍ شعرتُ معه بمدى الألَم الذي تُعانيه مِن أثر تلك التقرُّحات والتقيحات الكثيرة!

هنا بدأتْ نظرتي لها تتغيَّر كُليًا، فمِن توجُّس وقلَق غدَت شفقَة وعطف.. أخذَتْ خطوتين إلى الوراء وما زالت عيناي تُتابعها بحماسٍ شديدٍ وهي تقترِب في تؤدة نحو الصندوق في الوقت الذي كانت ترفع فيه ذلك الرباط العريض من حول عنقها الذي ينتهي بحقيبة قماشيَّة تضعها بشكلٍ معكوسٍ لتصل إلى بداية وسطها من الجهة اليُسرى، ثم أقحمت يدها اليُمنى داخل الحقيبة وهي تبحث عن ثَمَّة شيء لا أعلمه!

نظرتُ من حولي وجدتُ المارَّة يتحرَّكون ذهابًا وإيابًا دون أي بارقة اهتمام تنبت من وجوههم شفقة عليها أو حتى لامبالاة وكأن على رؤوسهم الطير، ولربما أيضًا يكونوا قد صاروا مُتبلِّدي المشاعر فتراهم فقدُوا معنى هامًا في نفوسهم يُسمى.. «الرحمة».

كنتُ أتساءل في حِيرةٍ عن سرٍّ تلك الابتسامة الشاحبَة التي ملأت وجهها حينما أصبحَتْ على بداية حافة الصندوق، وليتني كنتُ أستطيع أن أصغى إلى ما تُردِّده من غناء كان

يصدر من حنجرتها الصدأة، سمعتُ ثَمَّة صوتٍ أجش يُدندِن بلَحْن فرَح لأغنية قديمة!

«فجأةً».

أخرجَتْ ذلك القط الأشعَث وهو يُصدر مواءً غاضبًا في تكاسلٍ وكأنما يعترِض على إيقاظه من غطيطه العمِيق، مدَّت يدَها نحو صندوق « القمامة » وهي تقطع أحد الأكياس البلاستيكية لتُخرِج منه بقايا طعام ـ مُقزِّز ـ ثم تتوجَّه به نحو الرصيف بجوار الصندوق لتجلس وهي تستند على يدها ضامَّةً رُكبتيها نحو صدرها وما زالَت تحمِل القط، وضعَتْ « طعامها » على فخذيها وأخذت بإصبعيها جزءًا يسيرًا منه لتضعه في فمه، ثم رفعت رأسَها نحو السماء التي بدأت تُمطر في هدوءٍ وبعض القطرات بدأت تتناثَر على وجهها فأنزلت وجهها وتركَتْ القط ثم عادت برأسها مرةً أخرى وهي ترفع يدَها نحو السماء وتُشير بسبابتها إلى أعلى وتقول في يقين:

« الحمد لله ».

نعم الحمد لله...

الآن فقط أدركتُ معنى ابتسامتها الشاحِبَة!

لم أُخفِض ناظِري من عليها، بل تسمَّرتُ في مكاني أُتابعها وهي ما زالت على نفس حالها، تُردِّد حمدها لله وتُطعم قطَّها الرمادي...

ظلَّت هكذا تُطعمه حتى أدارَ وجهه عن يدها في تعالٍ دليلًا على الشبَع ودفع نفسَه من بين يدها ليقفِز بجوارها متمسِّحًا بقدمها، نظرَتْ إليه طويلًا ورسمتْ على وجهها ابتسامة رأيتُ فيها طيبةً عجيبةً، ثم مدَّتْ يدها في هدوءٍ ورِضى ويقين نحو فَمها وبدأت في تناول ما تبقَّى من طعام!



القصة الثانية عشر



«دنجوان»

سُحقًا لتلك المِرآة اللعينة!

لِمَ الإصرار على التَطلُّع فيها؟ حقيقة لا أعرف كُنه ذلكَ الشخص المنعكِس على سطحهَا المَصقول!

أتُرَاني هو؟

لا لا، لستُ أنَا، ليستْ تلك اللحية الشعثة لِحيتي، ولا عيناي يُحَاوطهما هذا السوَاد، أو يخفُت بريقهما، لم أحمِلُ بيومٍ هذا الجسد الهزيل، ولا تلك النظرَة المنكسرة!

يا إلهي ماذا دهاني؟!

أي مصيرٍ قاتِم دفعتُ نفسي به؟ أي جُبٍّ هذا الذي ألقيتُ نفسي في غياهِبه؟

لقَّبني البعضُ بـ «دنجوان» سَاحرِ الفتيَات والنسَاء، وأطلقَ عليَّ البعضُ قاهِرهن!

لقد آمنوا بهذا إذ رأينهن يقَعن سريعًا في شراكي، كذا رَأوا تلك الرغبة المُلحَّة التي تظهر على ملامحهُنَّ ولا يستطِعن إخفائها، غير ذلك التودُّد ومُحاولة مُغازلتي دومًا!

شيءٌ يُشعرك بلذَّة القوة التي تتمتَّع بها، لاسيَّما حينما تشعُر بمدى ضعفهن أمامكَ، أمام سيل الكلمات العذبة التي تتقاطر من فمكَ وتُلقيها على مسامعهن فيصِرن كالورقَةِ التي تتآكل جرَّاء الاحتراق، فلئن نفخت فيها تمزَّقتْ سريعًا، وسبَح رمادها نثرًا في الهواء.

لم أشعُر بمعنى التآلُف أو الحُب مذ أن خَانتني مَنْ اعتقدتُ أنها أنا، مَنْ ظننتُ أنها ستكون يومًا حلِيلتي، فلم تستأذِن قلبي الطاهر، بل اقتحمَته عُنوة، وجاسَتْ خلال ربُوعه تحت استسلَامه وخضوعه التام لها، فتعبَّد في مِحرابها، وأقْسَمَ ألا يَدين بحبٍ إلا حُبها، وكم كنتُ مغفلًا حينما سلَّمت لها مفَاتحه، فكشَّرتْ عن أنيابها، وانتهكَت حُرُمَاته، وطالَني سُمُّ ذَنبها

الزُّعاف، فعكَّرتْ طُهري، ولوَّثتْ روحي حتى أصبحتُ على ما أنا عليه!

أشعُر فقط بنشوةٍ غريبة حينما أنجَحُ عن جدارة في فض بكارة بعض تلك العلاقات القويَّة الناجحة بين قلبين، فأجتثها من جذورها، وأهدِم بُنيانَها المرصوص ومن ثَمَّ أوئدها حيَّة!

هواية غريبة؟

لا لا، هو سرطانٌ انتشر بدمائي وحملَته شراييني!

لا بد أن أعترف بهذا فأولى الفضائل أن يعترِف المرءُ بالحقيقة.

فلم يَسْلم أحد من شرُوري أو إيذائي حتى طال الأمر بعض الأصدقاء والمقرَّبين، فكنتُ أشعُر بقُوَّتي وغرُوري حينما تترُك إحداهن شابًا يافِعًا من أجلي حالمةً بحُبٍّ سَرْمَدِي، وعلاقة تُنافِس في قوَّتها علاقة روميو وجوليت، وكم أشعُر وقتها بحماقتهن، وتفاهتهن، وغبائهن! .. كنتُ أتفشى فيهن كالطاعون، فلا أبقي على نضرة خَضرٍ إلا وأذبلتها، ولا نثرة عبقٍ إلا وأفسدتُها، ولا نظرة أمَل إلا وقتلتُها، لذا شعور الانتشاء هو شعُوري الأعظم في نهاية تلك المسرحيَّة، خاصة

عندما أُخبرهُنَّ في عجرفةٍ واستهتارٍ أنني فقط كنت أروِّحُ عن نفسي معهُن، وما فعلتُه كان على سبيل التسلية!

كسرهن يُسعدني،

بكائهن يُرضيني،

تَملكهُنَّ هو ما أرنُو إليه دون أي مثقال حبَّةٍ من خردَل من رأفة أو شفقَة، فغدوتُ بلفظهم (حيوان) بمعنى الكلمة، ولا أُنكرُ هذا عليهم، لكن...!

لكن في خِضَمِّ هذا الضباب المُحيط بي، تنقشِع بعض الغيامات، وتتبدَّد بعض السحُب لتُنير سمائي المعتِمة بشخصٍ لا ينتمي لهذا الزمن!

شخص ربما أتى من عهدٍ مضى، أو من كوكبٍ آخر!

فكانت علاقتي بصديقي «ود» هي ما قد تشي فتُخبرني أنني مازلتُ أنتمي لفصيل البشر، وأن غريزتي الحيوانية هاته ربما سيأتي يومًا ما وتزول!

سألتُه يومًا في توتُّر:

- ألا تخشى أن علاقتكَ بي يُمكن أن تنتهي بالفشل وربما الفراق بسبب أفعالي تلك؟

ألا تخشى على نفسكَ مِني؟

لن أستطيع نسيان تلك النظرة الطيِّبة التي طلَّت من عينيه، وتلك الابتسامة الودودة التي أنارت مُحيَّاه وهو يجيبني في ثقةٍ وحسم:

- لا.. لستُ أخشاك، فالأرواح جنود مجنَّدة ما تعارفَ منها ائتلَف وما تناكَر منها اختلف!

شعرتُ بذلك المعنى الرائع بشكلٍ عَجَزَ لساني فيه عن الكلام، لاسيَّما ما إن استطرد وأخبرَني أنه حديث شريف عن النبي صلى الله عليه وسلم.

مُذ تلك الواقعة وأنا في صراعٍ رهيبٍ مع نفسي التي دائمًا ما تتغلَّب عليّ، كيف سأتمكَّن منها؟ كيف سأُروِّض تلك الغريزة وهذا المرَض المُستشري بخلايا جسدي بأكمله؟

حتى جاء ذلك اليوم!

هاتفني ليُخبرني بصوتٍ ندي تغشَّته غِبطة غامرة، أنه أخيرًا وجدَ نصفَه الآخر وشريكة حياته! لقد شعرتُ وقتذاك بتهدُّج صوته، سمعتُ خفقان قلبه، اشتممتُ تلك الطاقة الهائلة المنبعثة منه، رأيتُ وجهه أمامي، لكأنَّه البدر مُنيرًا في سماه، ثم بدأت الأفكار تُلاحقني!

لا أُريد أن أكون سببًا في أذِيَّته أو تعاسَته، أنا لم أكترثُ يومًا لحال الكثيرين مِمَن غصَّت حُلوقهم، وانهمرت دموعهم على يدي حينما شغلتُ فتياتهم عنهم، لكن مع «ود» الأمر مُختلف!

ظلَّ قرابة الشهر يُحدِّثني عنها وعن حيائها، وجمالها، وأخلاقها في الوقت الذي كُنتُ أتحاشى فيه الانصات الجيِّد له، وددتُ أن لو أصرُخ في وجهه: لا أريد سماع شيء عنها أرجوك!

لكن هيهات

فمرَضي قد تحوَّل بالفعل لوحشٍ كاسرٍ سيلتهِم كل مَن يعترض طريقه!

«أريد أن أعرِّفكَ بـ «سما»، فقد أخبرتُها عنكَ الكثير، وأخبرتُها عن صداقتنا الوطيدة».

قالها في براءة أزعجَتني، وانتابني على إثرها شعور عجيب!

الخوف!

نعم الخوف من المجهول.

ربما تُعَد تلك المرَّة الأولى التي يتملكني فيها هذا الشعور! ولكن الحق أقول أنني لن آمن مَكر نفسي معه، ولن آمن تبعات هذه المقابلة، فلا أريد أن أصبح حيوانًا شرِهَ الغريزة، خاصة معه.

ظلَّ يدفعني دفعًا حتى وافقتُ أخيرًا على تلبيَة رغبته، واتفقتُ معه على ميعاد قريب.

تبًا لتلك الذكريات اللعينة!

كانت خُطاي بطيئةً وقتذاك كأنما تتراجع تأبى المُضِي قُدمًا لهذا اللقاء، تحركتُ مُتجهًا للمكان المنشود في تردُّدٍ شديد، وما إن أتيتُه حتى وقفتُ من بعيد أرقبهما، فلم يَرانيا بعد، فرأيتُهما هناك جنبًا إلى جنب، يمسك بكفِّها في حنان، بينما أخذ يُشير بيدِه الأخرى نحو السماء تارةً، ونحو الأفق تارةً أخرى، كانا مُنغمسين في مشاعرهما، لكأن الشوادي تُحلِّق فوقهما، والزهور اليانعات تنتشر مَدَّ بصريهما!

يا لهما من بُلبلين يشدُوَان!

لماذا تمسَّكتَ بصداقتي أيها الأحمق؟

كانت أفكاري مُشتتَّة، ومشاعري مُتداخلة، وحالي مُختلف!

ماذا سأصنع بهما؟

هل سأكون سببًا في الفراق والوقيعَة بينهما كعادتي القَذِرة تلك؟

لا لن أسمَح بهذا، يجب أن أعاوِد أدراجي وأغادر هذا المكان الآن، وما رُمت غير أن أبتعِد عن تدنيس طهارة حُبهما فأدرتُ جسدي وتحرَّكتُ مُسرعًا و...

« باسم! ».

ناداني في رحَابة وموَدَّة اعتدتُها منه، فالتففتُ إليه في ضيقٍ اعترى وجهي لكن سُرعَان ما اختفى، وحلَّت محلَّه ابتسامة شاحِبة على ثغري، فتركَ يدها وتقدَّم نحوي مُرحبًا وثناياه أُضيئت بابتسامته العذبة، صافحني بانفعالٍ وسعادةٍ ثم أمسكَ يدي وسحَبني مُتوجِّهًا إليها، ووقفنا أمامها!

كانت المُواجهة حتميَّة، أنا أحب « ود » بَيْدَ أنني بلا قلبٍ، وربما سأخسَرُ صُحبته إلى الأبد!

وقفَ بمُحاذاتي مُبتسمًا ثم شرعَ يُعرِّفها بي:

- هذا صديقي « باسم » الذي أخبرتُكِ عنه.

تحاشيتُ بصعوبةٍ النظر إليها، وتلعثَمتُ وأنا أحاول الترحيب بها:

- أأ.. أمم.. كيفف.. كيف حالك؟

كنتُ وجلًا، تتصارع بداخلي قُوى غير مُتكافئة، الأولى قوى الشر التي تملَّكتني منذ زمنٍ، والأخرى تلك القوة الضعيفة التي تمثَّلت في محبَّتي لـ «ود»، فأي الكفَّتين سترجح؟

كنتُ لا أعلم صدقًا!

رفعتُ وجهي نحوَها فتلاقتْ عيناي بعينيها و...

لم أجرِّب الموتَ من قبل، لكن من المؤكد أن ما شعرتُ به وقتذاك عندما رأيتُ عينيها، أنبأني بماهيَة الموت، وفهَّمني شعُور لحظة خروج الروح!

ويكأنَّ روحي خرجَتْ مِن جسَدي بغِلظَة وقسوَة، ثم قُذفَت ورُدَّت إليه مرةً أخرى بنفس القسوة!

ويح قلبي!

ماذا دهاه؟

ما هذا الوخز الذي حلَّ به؟

لقد أُصبتُ بذات السهم الذي لطالما أنكرتُه، وأنكرتُ وجوده بالأساس!

ظلتُ عليها ناظرًا لعدة ثوانٍ لا أقوى على قول شيء، أو أُصدر أدنى حركة حتى صِرتُ أقرب ما أكون لشخص أبلَه!

فجأةً حدَثَ أمر جلَل لم أعرف له سببًا أو ماذا يعني؟!

فبدون مُقدِّمات، أو إدراك، أو حتى إرادة مني انتفضَ قلبي بشدة، أغرورقَت عيناي بالدموع، وبدأت تتساقَط في موقفٍ بدا غريبًا على أعينهما، تراجعتُ خطوةً للوراء أمام نظرة الحيرة والدهشة بعينيها ثم...

ثم استدرتُ واندفعتُ راكضًا كالممسوسِ بلا هَدْي أصرُخ: لا لاااااا!

ركضتُ ودموعي تتنَافر، بل الأنكى أن بُكائي علَت وتيرَته، وارتفع صوتُ نشيجي حتى وصلتُ منزلي وبداخلي مشاعر مُتَّقدةً لا أستطيع تفسيرها، كانت ليست مُجرَّد شررٍ، بل لهب مستعرٍ، فصار صدري كجذوةٍ يتلظَّى قلبي داخله!

كأسٌ مريرةٌ لطالما أسقيتُ منها الكثيرين، بَيْدَ أنني شربتُ من نفس الكأس.. فهل أحببتُها؟

الحقيقة أن نعم ولا أنكر على قلبي هذا!

نعم أحببتُها ووقعتُ أسيرًا في غرامها، ومتيمًا بسحرها، وهائمًا في رقَّةِ عينيها، وسابحًا في هواها.

لن أستطيع البوح بذلك، ولن أقوَى على جرح «ود»!

مرَّ شهرٌ وراء شهرٍ وها أنا ذا أرفُضُ مقابلته، أو مُهاتفته، أو الرد عليه.

ثلاثةُ أشهُرٍ أبدلَتْ حالي من ذاك الوسيم المغرُور، إلى هذا النحِيل المهزوم.

تبًا لكِ أيتها المِرآة اللعينة، لقد كشفتِ عن حقيقتي الدنسَة، ووجهي القبيح، فلأول مرةٍ أقِفُ أمامكِ مُتعرِّيًا لأرى حقارتي بوضوحٍ تام!

أما وقد غدوتُ ملعُونًا بعدما علَّم حُبها على قلبي وأحدثَ به ثَلْمًا غائرًا!

فستُلاحقني لعنة الحب، وتُطاردني ما حيِيت، وسيلحق بي دعاء كل مظلومٍ ظلمتُه!

فهل سأقوَى على تحمُّل تلك المعاناة؟

لا، لن يحدُث هذا، بل سأموتُ حُبًا لا ريب!

هل سيكون جزائي من جنس العمل؟

نعم، فهلاكي بات وشيكًا!

هل سيغفِر لي ربِّي خطاياي؟

أرجُو ذلك و...

وليرحَمني الله!

⁂ ⁂ ⁂

القصة الثالثة عشر



«وَهم الخلاص»

في وهَنٍ شديدٍ أنظُر بعينين زائغَتين أتطلَّعُ للسماء الرحبَة، جبيني مُتعرِّق، أنفاسي مُتحشرجة، في انتظار الخلاص.. المعركة باتَت على وشَك الانتهاء، أعلم هذا!

يبدُو لي الأمر مُختلفًا اليوم، أشعُر بدبيب النمل في جسدي، آلامٌ مُبرِّحة تنتشر به وكأن عشرات الشفرات الحادَّة قد أخذ أحدهم يُمرِّرها على جسدي في بُطءٍ وتلذُّذ، حتى صنعَتْ آلاف الجروح الحارقة.. كغصنٍ هشٍّ جفَّت مِياهه أبدُو، تكاد تتلاعب بي الرياح دون عناءٍ أو مشقَّة، ودون أدنى مُقاومة مِني! جسَدٌ ناحلٌ، ووجهٌ شاحِبٌ، تُحيط بعيني الهالات السوداء تكادُ تراني أقرب إلى مُدمِن مُخدَّرات مُحترف.. ((وما أنا منه ببعيد))!

أخذتُ أتذكَّرُ حياتي السابقة، وأتذكَّرها...

«جميلة».

لم يكُن اسمًا يتم هتافها به فحسب، هو اسمٌ، ووصفٌ، وشكلٌ لا تستطيع مُقاومة إغرائه، فتجد نفسكَ وبدون وَعيٍ تام وكُلَّما مَرَّت أمامكَ وفاحَ منها عطرُها المُثير، تلتفِت إليها مسحُورًا لتسبح سبحًا في تغزل قوامها الغض اللين، وتغوصُ غوصًا في بحرِ عينيها العميقَتين، فيفغر فاهَكَ، ويتساقَط اللعاب من شدقَيكَ، تمامًا ككلبٍ سالَ لعَابه حينما وجد قطعةً من العظم - فضلًا عن إنه كلب جائع -!

كنتُ أختلِسُ منها النظرات كلَّما مرَّت من أمامي أو راحت، فكم من مرةٍ انسلَلتُ ورائها كلِصٌ ساذج حتى أراقبها عن كثب، لأطيح بتلك الفعلة الحمقاء ما تبقَّى لي من قِيَمٍ ومبادِئ نشأتُ عليها، فأصبحتُ شخصًا آخر، شخص فقدَ كل معنى للأخلاق والإحسان.

نشأتي الدينيَّة صنعَتْ مِني نموذجًا صالحًا حسنًا يُقتدى ويُحتذى به، الأمر الذي جعل شيخي يُلقِّبني بـ«سُفيان الثوري» فصرتُ أسابِقُ أقراني وأنافِسهم بمسابقات الحفظ والقراءة بالمسجد، فسُرعان ما ثبتَت رؤية شيخي وتحقَّقت نبوءته.. أما دراستي فكنتُ مولعًا بها للغاية، التحقتُ بكلية العلوم رغم أن

مجموعي كان يُؤهِّلني للالتحاق بكلية الطب أو الصيدلة، لكن شغفي التام بعالم الجيولوجيا، وعِلم طبقات الأرض جعلَني أندفعُ كالمسحور نحو دراستها و... وأنهيتُ دراستي بتفوُّق تام، ولأن تحصين المرء واجب لكل من استطاع الباءَة، فقد سارَع والِدي بتزويجي من ابنة عمي وهو مُنتشٍ مُنتفخ الأوداج؛ فبهذا ضمنَ أن ميراث عمي - رحمه الله - لن يكون لغريب، والحقُ أقول كانت «زينب» نعم الزوجة وخيرَ جليسٍ وأنيس، كانت مُنتقبَة حافظةً لكتاب الله، بل كانت مُعلِّمة ومُحفِّظة أيضًا، لم تدَّخر مجهودًا لمساعدتي، ولم تبخل بوقتها أو طاقتها حتى تصنع لي جوًا سعيدًا بالبيت ثم...

ثم رزقنا الله بـ «مُصعب» الذي حمل جمال وجه أمه وخِفَّة ظِل طلَّتها.

حياتنا كانت مُستقرة وسعيدة، مُنتظمة ومُنظَّمة تسير في خَطٍّ مُستقيم، نعم ربما كانت مثاليَّة للبعض، لكن حقيقة الأمر أنَّ علاقتنا بدَت لي بعيدة تمامًا عن المثاليَّة، فكنتُ دومًا ما أراها روتينيَّة تسير في اتجاهٍ واحد، حتى علاقتنا الحميمية كانت تسيرُ على وتيرة واحدة أيضًا فاعتدتها واعتدت وجودها فحسب!

هناك شيء ما ينقُصني، شيء يُنبئني به شغَفي، شيء لم يستطِع التزامي ترِويضه أو تقييده!

لذا حينما ظهرَت «جميلة» بقوامها البديع، وأنوثتها الطاغيَة، ودلالها المُحْرِق لسنابل قلبي المخضرَّة، اشتاقَت أرضي الجدباء لسقياها، وارتفع مُؤشِّر شغَفِي لأعلى حدٍّ مُمكن!

لا أعلم كيف انجذبتُ إليها، لا أعلم كيف حُفِرت ملامحها على جدار قلبي حتى جاء ذلك اليوم!

في هذا اليوم كنتُ أشعُر بشيءٍ غريبٍ يُسيطر على مشاعري، فثَمَّة دقَّات أكاد أسمعها بوضوح صادرة من قلبي الهزيل، كنتُ أنتظرُ رُؤيتها حتى أُثلج صدري بهذا الشعور الرائع، دقَّات مُتلاحقة لقلبٍ غدا يُهرول نحوها يبغي الخروج من منبَته ليرتمي تحت أقدامها!

أهذا حُبّ أراه؟

لا أعلم!

ما علِمتَه وغدوتُ مُنكفِئًا عليه، أنَّ كياني ووجودي أصبح مُرتبطًا فقط برؤيتها، لهذا عندما كانت تسير أمامي في هذا اليوم شعرتُ وكأنها تُريدني أنا... أنا دون غيري!

نظرَتْ فجأةً نحوِي وأسدَلَتْ جفنيها العذبين برقةٍ ودلالٍ لا فرار منهما، بينما كانت شفَتاها الساحرتان تنفرجان لتحمل أروع ابتسامةٍ يُمكنك أن تراها تُرسم على وجه بشر، وقتها آمنتُ أنني أصبحتُ أحد مُريدينها ومسحُوريها، وربما سأغدُو يومًا أحد ضحاياها.. من يدري؟!

سقطتُ في شباكها، مكثتُ ليالٍ طوال أبكي في صَمتٍ بلا دموعٍ لوجيعة قلبي وانغماسي في حُبِّها.. ماذا صنعَتْ بي؟

كنتُ أعلمُ أنها تسلُك مَسلكًا خاطئًا في حياتها وعلاقاتها، لكنني لم أبالِ ولم أكترِث، شيء فشيء بدأتُ أحذُو حذْوها - السيء - فتركتُ صَلاتي وأهملتُ فيها، تعلَّمتُ منها أشياء كثيرة جُلَّها فاحِش وبغيض ولكنني أيضًا لم أبالِ!

أضحيتُ كحيوانٍ شَرِهٍ سقطَ في بئرٍ ومُستنقَع الشهوات والملذَّات، توهَّمتُ بأن قلبها مازال طاهرًا وليومٍ آتٍ لا محالَة سيكون مِلكًا لي!

كنتُ مُخطئًا في تقديري، فأنَّى للذئب أن يغدُو وديعًا؟!

الآن أقِفُ على أعتاب نهايتي، مُدمنًا أصبحتُ، خائنًا غدوتُ، فاسدًا تحوَّلتُ، لم أنفَك عن شُرب المُسكِرات والمُخدَّرات منذ وأن اقتربتُ منها وأصبحتُ خادمًا مُطيعًا لها!

أي شَرٍّ هذا الذي تحمِله في طيَّاتها، بل أي فسادٍ متوارٍ خلف قناع الجمال والطهارة الزائف تحمله؟

أخبرتُها أني صرتُ عاشقًا لها، مُتيِّمًا بقُربها أريدُ الزواج منها.. أتذكَّرُ تلك النظرة المُستهتِرة وهذه الابتسامة الساخرة التي احتلَّتْ وجهها وهي تُخبرني أنني قد أُصِبتُ بلوثةٍ عقليَّة وجنان مفاجِئ، تذكَّرتُ دفعها لي بقوةٍ، تذكَّرتُ استعانتها ببعض الرجال الذين قاموا بسحلي حتى امتلأ جسدي بسحجاتٍ كثيرةٍ مُؤلمة أفقدَني الهذيان الشعور بها.. توسَّلتُ وتوسَّلتُ، وأبَتْ وأبَتْ، حينها تحدَّثتُ لنفسي بقوةٍ «لم يُعد لي أي رغبَةٍ فيها الآن، فلتذهَب إلى جحيم الأغبياء، المعركة لم تنتَه بعد وما زال في جُعبتي الكثير، لا بد أن أُخلِّص العالم من شرور أمثالها اللواتي أصبحنَ كالثعابين، لا بد وأن أجتَثها من جذورها!».

لم أعرف كيف وجدتُ هذا المسدَّس في يدي؟

ربما أعطاني إياه أحد ضحاياها، ربما إحدى زوجات بعض المغفَّلين أمثالي؟ لا أتذكَّر.. فقط تحرَّكتُ واضعًا يدي داخل مِعطفي أتلمَّس برُودة فوهَة المسدَّس في عزمٍ أخافني!

انتظرتُ طويلًا حتى ظهرَتْ، ومن ثَمَّ عليَّ حسم هذه المعركة.. ولصالحي.

في مشهدٍ دراماتيكي مُثير انقطعَتْ فيه الأصوات تمامًا ترانا ويكأنَّ الزمن توقَّف بِنا، تتقدَّم وهي تتأبّط ذراع أحد المغفَّلين - الجُدُد - عيناها تحمِل قسوَةً لم أرها من قبل، شعرها تتلاعب به الرياح بقوةٍ ليتطاير من خلفها، وجها بغيضٌ كشيطانٍ رجيم فرَّ من قعر الجحيم و...

وابتسامة إبليسيَّة لهي الأمقَت إلى قلبي في تلك اللحظات.

وقفتُ مُترنِّحًا من أثر السحل الذي تلقيتُه منذ سويعات قليلة حتى اندفعتُ نحوها، أخرجتُ المسدَّس في سُرعةٍ وأنا أتوقَّفُ أمامها مباشرةً وعلى بُعد خطوات معدودة...

توقَّف المشهد للحظاتٍ أُخرى مُثيرة لم يقطعه سوى صوت تيار خفيفٍ من الرياح يُداعب بعض الأترِبة المتناثِرة هنا وهناك وبعض الوُرقيات التي تفترِش في الطرقات، لم أتفوَّه بأي كلمةٍ، وإنما نظرتُ إليها في ثباتٍ!

أهذه ابتسامَة سُخرية تتربَّع وجهها؟

وكأنها تعلم أنني لن أُقدم على ضغط الزناد!

ولكن هيهات فقد أخذتُ قراري بالفعل!

نظرتُ إليها ولوَّحتُ بيدي مُعلنًا عن عزمي لقتلها.. فجأةً وبلا مُقدِّماتٍ وجدتُني أبكي بكاءً حارًا تذوَّقتُ فيه مرارة الشقاء، شعرتُ بدموعي الساخنة تتساقط بلا وَعي لتملأ وجهي وتُخضِّب لحيتي الشعثة.. تذكَّرتُ شيخي وكم شعرتُ بالحنين إليه، تذكَّرتُ «زينب» وتمنَّيتُ لو أن تغفِر لي وتُسامحني، وتذكَّرتُ «مصعب» واجتاحتني رغبةٌ عارمة في احتضانه وتقبيل جبينه، ولا أعلم لماذا شعرتُ بالحنين والاشتياق لرفع الآذان كالأيام الخوالي!

رفعتُ رأسي نحوها ودمُوعي قد توقَّفت، هززتُ رأسي مُعلنًا ندَمِي وأسَفِي لعلاقتي الآثِمة بها، رفعتُ يدي في قوةٍ وإصرارٍ نحوها مُشيرًا بسلاحي ثم... ثم أدرتُ الفوهةَ نحو صدري و...

وضغطتُ الزناد!

أشعُر بهم يقتربون الآن،

أشعُر بدبيب النمل في جسدي،

أشعُر بآلاف من الشفرات الحادَّة تُمرر على جسدي لتُحيله إلى جحيمٍ مُستعر!

لقد انتهتْ المعركة لصالحي ولا أعلم هل هذا هو الخلاص، أم هو وَهم الخلاص؟

فهل آن الآوان للرحيل.. نعم!



القصة الرابعة عشر



«المريض»

الوقت يمضي ببُطءٍ شديد..

هل يتحرَّك بالفعل نحو مجهُول؟

لا أدري حقًّا!

هل عقارِبه يصدُر عنها تلك التكات المنتظِمة؟

فقط أسمعُها ولكنني لا أشعُر بها!

أظن أن العلاقَة بالوقت والإحساس بمُضِيِّه، وبين الشعور بالألَم عند الكثيرين لا تُمثِّل سوى لحظة ألَم واحدة يشعرُون بها كأنكَ تغرِز سن حُقنة إنْسُولين مُسالمة في فخذ أحدهم! أما أنا فعلاقتي بهما علاقة طرديَّة؛ فكلما زادت شِدَّة وطأة آلامي،

كلما تسارعَت عقارب الساعة بالتراجع راغبةً في التوقُّف حتى أتلذَّذُ بكل لحظة مُعاناة أُلاقيها، ولم يكن لأحدٍ أن يشعُر بسماجَة هذا الشعور المُمل سواي!

كل شيء يمُر أمامكَ في تلكُّؤٍ حانِق يُثير أعصابكَ ومُستفزًا لمشاعركَ بشكلٍ يجعلكَ أقرَب إلى الجنون كأن سلحفَاة بريَّة عجُوز وضعت فوق صدفَتها الخارجية طنًا من الطين فبدَت حركتها لا تُرى بالعين المجرَّدة.

« هكذا كنتُ أشعُر بمضي الوقت ».

فصارت الخُطى ويكأنَّها تتراجع، والأجساد من حولك تتحرَّك في إيقاعٍ رتيبٍ مُمل كأنَّكَ ضغطَّتَ على زر التحريك البطيء الخاص بهم (SLOW MOTION).

فالضحكات مُتوقِّفة، والوجوه مُتجمِّدة، والمشاعر مُتقلِّبة والأجسام مُتَيبِّسَة!

الألمُ ألمَّ بكَ في وقتٍ يسير جدًا وبسُرعة خرافيَّة، لم تكن تستعِد له فبدأ الغَزو مُباشرة!

كأنَّك تراه ملِكًا عظيمًا في عنفوان الشباب، قوي، وطَمُوح، ومُثابر، فضلًا عن أنه مُقاتل صنديد لا يُشَقّ له غبار، يقطع

طريقًا مُستقيمًا داخل مملكته الجديدة ليُشيِّد بها إمبراطوريته العظيمة، ويُأسِّس بها حضارته المترامِيَة، ولا تعلم وقتها هل سيُلاقي مُقاومَة ما يتقهقهر أمامها؟

أم أنه سيَسحق كل ما يُواجهه من مُقاومة حتى يجلس على عرشه الجديد؟

أظنُّ الثانيَة أقرَب!

أرقُد على ظهري على تلك الطاولة التي تُشبه تابوتًا منزوعَ الغطاء في هدوءٍ غير منطقي، باسطًا ذراعيَّ من أمامي في تراخٍ ملحوظٍ ورأسي قد أرحتُها تمامًا، أما عيناي فكانتا ثابتتان لأعلى أنظُر بهما لتلك المصابيح بيضاء الإضاءة والتي أراها أقرب لخليَّة نحل في شكلِها وطريقة وضعيَّتها لتُعطي إضاءة ساطعةَ تُشعرك بالراحة والأمان الكاذبين!

قال لي يومًا أحد الأصدقاء المُقرَّبين أنني مِن هؤلاء الحمقى الذين يتبنُّون نظريَّة (لا تُلقي للهّم والحُزن بالًا).. ظنًا مني أن ابتسامتي هي مبعَث شفائي من كل داء، وكنتُ مُؤمنًا أنني بالفعل أحمَق، وأن حماقتي تلك رُبما يومًا تسُود العالم، ويسعد بها الناس ليعلَموا يومًا أنما تلك النظرية «الأرسطور نتشيية» هي من قريحَة أفكاري ولكن... ولكني الآن لا أراها سِوى

مُجرَّد هُراء وخواء بالفعل، فالألَم أقوى من أي عقارٍ أو مَصلٍ مليء بالابتسامات أو حتى الضحكات!

كانت قدماى - ورغم تراخي جسدي - مُتشنِّجتين قليلًا، ربَّما هذا يعود «للخوف الباطن»!

هناك كمٌ لا بأسَ به من الأدوات - الحربيَّة - الطبيَّة، هناك أيضًا رائحة مُختلطة ما بين البِنج والكحول والبيتادين، تلك الرائحة المميزة لهذه الأماكن، رائحة كفيلة وحدها أن تُجبرك على الوقوف على قدمَيك وتُسرِع فارًا هاربًا من هذا الجحيم المُنتظر دون أن ترتدي حتى سُترتك!

هناك أجهزة متصلة بالكهرباء وغيرها ساكنة في سلام، ثم هناك تلك الممرضات الحسناوات!

لا أدري لماذا دائمًا تجدهن حسناوات!

حقًا يستحِقن أن يُلقَّبن بملائكة الرحمة؛ فيكفيك أن ترى ثغورهن المُبتسمَة حتى تتدفَّق الدماء في عروقك، وتُشحذ الهمم داخلك فتكون البداية للتغلُّب على مرضك..

أسمعهُنَّ في وضوحٍ جليٍ وهُنَّ يتبادلن ويتحدَّثن عني في حُزنٍ واضح:

- يا له من وسِيم مِسكين.

- هذا البنيان القوي سيغُدو ناحلًا، وهذه الخصلات الناعمة ستُصبح والعدم سواء.

- ليته كان معافى.. ادعُن له.. هل هو مُتزوِّج؟ سيظل بريق عينيه أمل في الإبقاء على حياته.. كم هي محظوظة!

هكذا كنتُ أسمعهُنَّ بوضوحٍ وإن كانت أصواتهن لا تتعدى أفواههن سنتيمترين، وأتغاضى عن تلك الكلمات الرحيمات والتي يتبادلنها جِواري ولا أعبأ بها لأنني مُؤمن بقدري وقضاء الله في أمري.

بدأتْ الجلسَة وكالمُعتاد بدأَتْ أنفاسي تحتبس داخلي من فَرط الألَم الذي وصل درجة غليان الماء، العرَق تنافر من كل ذرة في جسدي، الدموع ترفُض الخلود في عُقرها فبدأتْ تتقافز خارجة، أنهارٌ من الحِمَم المُلتهبَة صارت تسير عبر كل خلايا جسدي، وثَمَّة صرخة مُدوِّية تأبى الخروج من حلقي.. لماذا لا أصرخ؟ آآآآآآآآآآآآه

«يا لَهُ من علاج سخيف!».

وقفتُ مُترنِّحًا تكاد لا تحملني قدماي، أجُرُّها جرًا حتى دلفتُ إلى حمامٍ صغيرٍ مُرفَق بتلك الغرفة، اقتربتُ من صنبور

المياه ثم قمتُ بفتحه لأجعل المياه الباردة تتدفَّق، وضعتُ كفي الأيمَن تحتها ثم رفعتُه لأضع بعض القطرات الباردة على جبهتي علَّها تُسكِّن الألم المُنتشِر برأسي.. نظرتُ للمرآة التي تعتلي الحوض أنظُر لهذا الشخص الغريب أمامي...

«يا لوَجهي المسكين قد صار شاحبًا».

وبينما كنتُ أُخلِّل أنامِلي بفروَةِ رأسي وجدتُ بعض الخُصلات البسيطَة مُتعلقة فيما بينهم!

«هكذا سيبدأ الأمر إذن».

تذكَّرتُ أمري، وتذكَّرتُ كيف بدأ مرَضي، تذكَّرتُ نظرات الشفقَة السخيفة التي كنتُ أراها في عيون أصدقائي، تذكَّرتُ خطيبَتي وترْكَها لي بينما كنتُ في أمس الحاجة لمن يقف جواري يُساندني ويدعمني.. قالتْ لأختي في كبرياء:

- أنا لا أستطيع جعل حياتي مرهُونة بحياةِ شخصٍ سريعًا ستُحلِّق روحه عاليًا، ويتركني أعاني وحدي من سخافات الحياة وأنا في ريعان شبابي، كما أنني أريد إنجاب طفلٍ وهذا أصبح مستحيلًا!

رائعاتٌ حقًا من تحمِلن جينات مثلها.

هدأتُ قليلًا ثم ارتديتُ ملابسي وهممتُ بالخروج، فتحتُ الباب وأنا أحاول - كعادتي - إخفاء وجهي ونظراتي وحالي عن أعيُن بقيَّة المرضى، لكن شعوري بأن ثَمَّة عينين تُراقباني تغلَّب على رغبتي فرفعتُ رأسي أنظُر نحوهم وأنا أخطُو خطوَتي الأولى و...

يا إلهي!

اندهشتُ وأنا أنظُر لتلك الحسناء التي كانت ترمُقني في تركيزٍ واضح، ومن باب الصراحة دعني أخبركَ سِرًّا هامًا، فلم يكن مبعثُ دهشَتي هو رُؤيتها أو رؤية وجهها الساحر فحسب! بل كانت أيضًا لتلك الصاعقة التي تلقَّاها قلبي المسكين فور رُؤيتها!

لا.. ليس هذا وقتًا مناسبًا لتلك الدقَّات المُتسارعة ولا وقتًا لهذا الخفقان المُنتظِم في الارتفاع!

شعرتُ بخجلٍ يتملَّكني ولم أكُن أعلم ماذا عليَّ أن أصنع الآن؟

((السلام عليكم)).

قلتُها في خجلٍ ملحُوظٍ بينما كنتُ أقتربُ منها، فابتسمَتْ في حُزنٍ واضحٍ وهي ترُد سلامي بآخر، ثم صمتَتْ بُرهة وقالَت في أريحية عجيبة:

- حمدًا لله على سلامتك أستاذ «وائل».

«الدهشة الثانيَة».. كيف عرفَتْ اسمي؟!

لم تعُد قدمَاي تتحمَّل وقفتي هذه، فجلستُ جوارها أبتسِم في وهَنٍ قائلًا في شيءٍ من المزاح:

- لم أكن أعلمُ أن شُهرتي تسبقني أينما وُجدت؟

أجابَتني في بساطةٍ:

- هنا وفي هذا العالم تحديدًا كل شخص يعرف الآخر، اسمه، وسنه، وحالته، وعلاجه، وحياته الخاصة.. الكل في حالة تعطُّشٍ دائمةٍ لمعرفة المزيد عن الآخر، ماذا جدَّ في حالته وهل سيمْثُل للشفاء القريب، الكل هنا يحيا على أملٍ صعب المنال، ولكنهم دائمًا مُتفائلون، ويحلمُون بلحظَة عودتهم لِما كانوا عليه من قبل.

أومأتُ برأسي علامة الفهم ولازالت ابتسامتي الشاحبة تملأ وجهي، ويداي مازالتا ترتعشان، هممتُ بسؤالها عن سبب

تواجُدها أو بالأحرى نوع مرضها ولكنني أرجأتُه لوقت آخر، ثم في أريحيَّة مُشابهة لتلك التي حدَّثتني بها بدأتُ الحديث:

- كنتُ أحيا حياةً هادئة، حياة مُسالمة أساسها الطموح، عمدانها العزيمَة، بنيانها رُصَّ بعنايةٍ فائقة من الصبر والتجلُّد والإيمان بما قدَّره الله لي من إمكانيات شخصية وإجتماعية، وطلائها مُزجَ بخليطٍ من الحُبِّ والأمل، لم يكن هناك ما يُعكِّر صفو حياتي أو يُحيلها لجحيم مُستعر.. وقفتُ ألتقتُ أنفاسي المختنِقَة واستطردتُ مُكملًا ونظرة ألَمٍ وحُزن واضحين اعتليا وجهي:

- ويمكنكِ أن تستنتجي بعد إصابتي بهذا الكابوس المرعب الذي أحيَا فيه كل يومٍ وكل لحظةٍ ماذا يصنع بي، كأنَّه وحش كاسِر يشعُر بجوعٍ شديدٍ قطَّع أمعاءَه ألمًا، وجعله يتلوَّى دائمًا من فرط جوعه فأخذ يلتهم الأخضر واليابس.. شعورٌ مَقيت بسببه انقسَم الناس من حولي، نظرات شفقَةٍ وألم تعتري وجوه بعضهم، وهناك من تجنَّب مُصافحتى خوفًا من شيء لا أعلمه، هههههههههه وهناك من تركَني في عرض اليَمِّ أسبحُ بمفردي باحثًا عن تلك القشَّة الغائبة والتي لم أسلَم من ألاعيبها الشيطانيَّة هي الأخرى، فصرتُ أسقطُ لأسفل في صمتٍ مُطبق.. أقصد بالطبع خطيبتي التي فرَّت هاربة!

كانت عيناها تلمعان بشكلٍ ملحوظٍ وهي تُتابع كلماتي الساخطَة، وتُتابع حركةَ عينيَّ وشفتيَّ في اهتمامٍ بدا لي منطقيًا حينها، ثم أطرقَتْ بهما أرضًا حياءً وخجلًا عندما وجدَتْني أنظُر إليها، فقالَت في هدوءٍ ساحِرٍ وهي ترفعهما مرةً أخرى:

- لا عليكَ.. ربما أراد الله أن يُعوِّضكَ خيرًا منها.

- أحمدُ الله على كل شيء.

ثم سألتُها في لُطفٍ بعد ما شعرتُ بطمأنينةٍ بدأتْ تنتشِر داخلي:

- هل هذه أوَّل جلسةٍ لكِ؟

ابتسمَتْ ابتسامةً خلَّابة ازداد لها خفقان قلبي، ثم أجابَتني في حياءٍ بكلمةٍ واحدة:

- لا.

كنتُ في حيرةٍ من أمري؛ فعقلي المُشوَّش لم يستوعب كلمتها، فبادلتُها ابتسامةً أردتُ أن تبدُو مُشجعة فخرجَتْ رغمًا عني واهِنة لأُلقي السؤال الثاني:

- إذن هي المرة الثانية؟

اتسعَتْ ابتسامتها أكثر وأكثر، وازدان وجهها بحُمرةٍ الخجل حينما رأتْ بعض الأعيُن تُتابعنا، فاكتفَتْ بالصمتِ الباسِم وأشارتْ بسبابتها كالبندول.

ضحكتُ لإجاباتها المُستترة ولا زالَت الحيرةُ تكتنفني ثم قلت:

- هذه أول مرَّة أراكِ هنا و...

باغتَتني بسؤالٍ مُفاجِئ:

- كم جلسة حضرتَها أنتَ؟

في نظرةِ تساؤُلٍ أجبتُها:

- اليوم كانت الجلسة التاسعة.

اخفضتْ رأسَها مرةً أخرى للحظاتٍ، ثم رفعَتْها قليلًا تنظُر في الاتجاه الآخر وكأنَّها تُخفي عنِّي نظرات تخشى التحدُّث عنها وإخباري بما تأبى شفَتيها إخراجه، تابعتُ حركةَ يديها، واهتزاز ساقيّها المُتوترة مُنتظرًا إجابتها بهدوءٍ لا يتناسب قط مع تلك التساؤلات التي جعلَت بعقلي ضوضاء لا حُدود لها، هممتُ بسؤالها مرةً أخيرةً حتى أُسكتها، لكنَّها فعلَتْ هذا

بهمسها المُفاجِئ، فروَتني ببسمةٍ من ثغرها الدقيق قبل أن تتحدَّث قائلة:

- إذن هذه المرة التاسعة التي أتواجدُ فيها هنا.

شعرتُ بشيءٍ يتحرَّك في صدري...

((آها إنه قلبي إذن)).

شعرتُ بقلبي ينبِضُ من جديد، وبدأتْ الدماء تتدفَّق داخله لتُعيد له الحياة مرةً أخرى!

لم أعُد أشعُر بالتعَب والألم، لم أعُد أشعُر بالناس مِن حولي، والغريب أنني لم أعُد أشعُر بملَل مرور الوقت!

ابتسمتُ مرةً واحدةً وأنا أرقبُ وجوه المرضى من حولي فوجدتُهم يتبادلون النظرات نحونا، فنظرتُ إليها وأنا أسألها في شجاعةٍ لم أعهدها في نفسي:

- إذن ما هو اسمك؟

تهلَّلتْ أساريرها بشكلٍ ملحوظٍ واعتلَتْ وجهها حُمرة خجَل أخرى جعلَتْ وجهها أكثرعذوبة، ثم همَّت بقول شيءٍ ما قرأتُه واضحًا على وجهها وكأنَّها توَد أن تقول..

((أخيرًا)).

ثم قالَت كلمةً واحدةً بصوتٍ مُتهدِّج:

- ((همس)).

- ...؟

- ((همس)).. اسمي ((همس)).

أطلقتُ زفرةً حارةً أخرجتُ معها بقيَّة توتُّري وأنا أُردِّد اسمها في سعادةٍ ملأتْ وجهي أنا الآخر:

- ((همس)).. يا له من اسم، اسمُكِ رائعٌ، ((همس)) ثَمَّة شجن، وفرحَة، وسعادة، وسحر يفوح منه، لقد كـ...

((أنا أحبُّكَ))!

((الدهشة الثالثة))..

قالَتها فجأةً بدون مُقدِّمات اختلج قلبي معها وأوشكَ على الخروج من قفَصي الصدري!

زلزال هزَّ كياني هزًا كان إثر جُملتها.

تحشرجَ صوتي وسعلتُ عدَّة مراتٍ فأخرجتْ زجاجة مِياهٍ من حقيبتها ومدَّت يدها بها نحوي فتجرعتُ ما تيسَّر لحلقي، ثم نظرتُ إليها في دهشةٍ عارمَةٍ ممزوجة بفرحةٍ مجهولة المصدر وأنا أهِّم الكلام، فقاطعتني بوضع أنامِلها الرقيقة على فمي وبدأت ((همس)) الهمس:

- حقًا أنا أحبكَ وليس حُبًا عاديًا ولا مُستحيلًا، ولا تجعل هذا أيضا يُدهشكَ.. هذه ليست المرة الأولى التي أراك فيها؛ فأنا أهتمُ بكَ وبأمركَ منذ أن وقعَتْ عيناي عليكَ منذ ثمان جلساتٍ مرَّت، لا أعلم ماذا صنعتَ بي! فمنذ أن رأيتُكَ وأنا أشعُر بأنَّ حياتي كلها صارت مِلكًا لكَ وحدك.. صرتُ أشعُر بأنني فقط أحيَا من أجل سعادتكَ ومن أجل مُساندتكَ في مِحنتكَ.. أكتفي بتلك اللحظات التي أراكَ فيها أثناء دخولكَ وخروجكَ من جلساتكَ لتمنحني دِفئًا وحُبًا يُبقيني على قيد الحياة للميعاد التالي، أتعذَّبُ لآلامكَ العميقة، وأتألَّمُ لصرخاتكَ الصامتة، أبكي مرارةً لنظرةِ الحُزن في عينيكَ، وأبتسمُ لبريقهما الذي يُعطيني أملًا جديدًا في الحياة!

كنتُ أتابع حديثها في سعادةٍ غطَّت آلامي بالفعل ولا أعلم لِمَ؟ لا أدري لماذا شعرتُ بحنينٍ تجاهها؛ والغريب في الأمر أن كلامها بدَا لي حقيقيًا وواضحًا وصافيًا ورائقًا - كوجهها

الصبوح المُشرِق - ونابعًا بالفعل من قلبها دون نظرةِ الشفقة المقيتة والتي اعتدتُ أن أراها من أعين البعض.

أكملَتْ وبنفس الحب:

- كنتُ أسألُ المُمرِّضات فور خروجكَ عن حالَتكَ ولطالما حدَّثُوني عنكَ وعن إرادتكَ وعن أحلامكَ.. هل تعلم أنهنَّ يُتابعوننا الآن؟ اُنظُر أمامكَ ستجِدهن يختلِسن النظرات ويتهامَسن في خجَلٍ عنَّا، يتبادلن الضحكات ويغبطن علاقتي بكَ، أنا لا أريد منكَ شيئًا سوى أن تمنحني الأمل من هذا البريق الذي أراه في عينيكَ، أمل يُقوِّيني ويدفعني دائمًا لمنحكَ حُبًا عميقًا خالدًا سيظل يحيَا طالما داخلي قلب يتنفَّس عِشقًا لكَ.. فأنا لا أُريد سوى الجلوس بين يديكَ أُداعب خصلاتكَ الناعمَة وأستمتِع بدفء حُبكَ الساطع.. أريدكَ أن تُعاهدني على التحمُّل والتجلُّد، إرادتكَ وحدها - وبعد فضل الله - هي سبيلك للشفاء، سأكون معكَ إلى الأبد، وأعاهدكَ أنني سأحيَا لأكون لكَ الزوجة التي تمنَّيتها، والابنة التي تُريدها، والأم التي تشتاق لصدرها الحنون دومًا.. فقط عاهِدني بالتفاؤل والأمل الذي أراه في بريقِ عينيكَ وكل شيء سيغدُو سهلًا.

كانت هناك عشرات الأسئلة تُعربد في رأسي، كان هناك خوف من مجهولٍ بدأ يُحلِّق في سماء عقلي!

كيف سنحيا وكلانا يحمل وحشًا يفتِك بنا؟

لا.. لن يكون هذا عدلًا لها أو لي!

- ما هي حالة مرضكِ؟

بالفعل لم أعُد أشعُر سوى بهمسات « همس » الساحرة وبكلامها الذي أصاب مُنتصف قلبي بدقةٍ مُذهلة، لذا سألتُها ذلك السؤال في لهفَةٍ شديدةٍ مُترقِّبًا إجابتها.. وكانت المُفاجأة:

- أنا لستُ مريضة.

« الدهشة الرابعة ».. هل شعرت يومًا بذلك الألَم الذي ينتابكَ حينما تمس بيدكَ سلكًا عارٍ مُوصَّل بالكهرباء؟ فما بالك وإن قبضتَ عليه بكلتا يدكَ؟ هكذا شعرتُ ويكأن صاعقة قُوَّتها ألف فولت سرَت في جسدي بأكمله حينما تفوَّهتْ بتلك الجملة، فقلتُ وأنا أُحدِّق في وجهها بدهشةٍ عارمَة:

- نعم؟ لا أفهم شيئًا!

- أنا لستُ مريضة، لقد رأيتُكَ منذ فترة في آخر جلسةٍ لإحدى الصديقات التي كنتُ أصحبها في جلساتها وقد تماثلَتْ للشفاء.. فكنتُ هناك حيث رأيتُ وجهكَ الوسيم وثغركَ الباسم دائمًا، فشعرتُ وقتها وكأننا خُلقنا لبعضنا البعض وأنني أصبحتُ

ومن حينها مسؤلةً عنكَ، فصرتُ أعرفُ ميعاد جلساتكَ وأسبِقكَ إلى هنا وأنتظِر خروجكَ حتى أتنفَّس الصعداء لاطمئناني عليكَ داعيَة الله لكَ بالشفاء.

- عاهِدني الآن أن نبدأ سويًّا طريقًا جديدًا مفرُوشًا بالحب والعطاء مُزدان بالأمَل والتفاؤل، تتزيَّن جوانبه بالتسامح والحنين.. عاهدني.

كنتُ أنظُر لوجهها المضيء كألف شمسٍ مُشرقة وداخلي صراعٌ مرير!

كيف أرهِنُ سعادتي بتعاسَتها؟ كيف أتشبَّثُ بتلك الحياة التي تتفلَّت مني رُوَيدًا رويدًا؟ بل كيف سيتحمل قلبها الرقيق هذا المصير الذي يزحف ويدق الأبواب؟

تبًّا لأنانيتي!

نعم تبًّا لها بل وألف تب، لن أسمح بأن أغتال سعادتها ولن أكون ظهيرًا لأنانيتي!

كنت أنظُر لعينيها المُلهِمتين بعدما كسى ملامحي الجُمود، فقرأتْ أفكارى، لقد ظهر ذلك في نظرة الرجاء المُطلَّة من عينيها، وتوتُّر سطح وجهها، وفي رجفةِ شفتيها... لم أنتظِر طويلًا وتحدَّثتُ:

- لكم هو مُؤلِم ذلك الشعور، شعور الفرحة الخادِعَة، تأتي الفرحة على غير ميعاد، نظل نلهَثُ وراءها، نقتفي أثرها، نبحثُ عنها في الرُكام ولا تأتينا، ويوم أن تأتي نكون قد زهدناها.. لن أشارك في هَدم سعادتكِ يا خليَّة القلب؛ فمصيري محتوم، ففي الوقت الذي أتمنَّى أن تمنحني الدنيا فيه رصاصة الرحمة، تفتح لكِ فيها ذراعيها!

توقَّفتُ قليلًا ألتقِطُ أنفاسي، وظللتُ عدةَ ثوانٍ أنظُر إليها، ثم قلتُ كلمةً واحدةً أودعتُ فيها كل حُزني قبل أن أترُكها وأنصرِف وسط دمُوعها الزاخة:

- وداعًا.

لا أعلم كيف وجدتُ في قلبي ونفسي القُوَّة الكافيَة لكي أترُكها وأنصرف، لكن ما حدث في الجلسةِ العاشرة كان مُختلفًا! مختلفًا لأبعَدِ الحدود! ولم أتوقَّع أن هذا سيصدُر عني تجاه ما حدث.

بعدما انتهتْ الجلسة وبعد مُحاولتي الهشَّة في لملمةٍ أشلائي المُبعثرة، استطعتُ أن أجمع بعض قواي الخائرة وتحرَّكتُ نحو الباب، وما إن قمتُ بفتحه وجدتُها تقِف على أعتابه بابتسامة تغشي الأبصار!

وقفتْ في اعتدادٍ بينما كان ثغرُها مُنفرجًا في سعادةٍ جَمَّة، وحين هممتُ بالتحرُّك مدَّت يدَها تضعه على إطار الباب تعترِض طريقي فابتسمتُ.

لم تُمهلني أو تمنحني لحظةً واحدة، فجذَبتني من يدي خطوَتين جانبًا، ثم قالتْ في قوةٍ وجُرأة:

- الضعف سِمَة الفاشلين، ووجودكَ هُنا يعكس مدى محبتكَ للحياة، ودليل قاطع أنكَ شخص ذكي ناجح، لا تجنَح لليأس، ولا تجعل القنوط يُنسيكَ رحمَة رب العباد بنا، فكم من نعمةٍ أنعَم بها علينا، أفِق قبل فوات الآوان، افق قبل أن تخسر قلوبًا تُحبكَ...

توقَّفَتْ عن حديثها تنظُر إليَّ فوجدتُ عينيها لامِعَتين بشدَّةٍ قبل أن يغرورقا، فأردفَتْ بحُبٍّ جامح:

- ثم إنني فتاةٌ لا تقبَل الفشل، ولا تتنازل أبدًا أبدًا عن تحقيق طموحها، وعليك أن تعلَم أنَّكَ كل طموحي وكل أحلامي!

كنتُ أتابعها بحُبٍّ قام من رقاده الطويل واستيقظ من سُباته العميق فجأةً، كنتُ أود مُعانقتها بعدما بدأتْ دموعها الغاليَة تنساب في رفقٍ وهدوء.. لم أعلم حينها أكان حديث عقلي لقلبي صوابًا أم لا، حديثٌ بزجره عن الاندفاع ليحيا هو

ويُميت قلبًا آخر بعدما يُسقيه من كأس فراقٍ ألمه لن ينتهي، ألَم أشد من هذا الذي سيفتك بي عن قريب، لكني سرتُ وراءه كـ شاة تخشى أن تبتعد عن القطيع، تخشى أن تعصي أمر صاحبها وتأكُل من طعام وجدَته بطريقها، لم يضعه هُو لها، حينها فقط نظرتُ حولي وكأني أتلمَّس من الوجوه الناظرة لنا طوق النجاة من أفكار عقلي التي غرِقتُ بها، فوجدتُ المرضى على وجوههم نظرات مُتباينة، البعض تحمل عيناه نظرات رجاء قرأتُ فيها «ألا تتركها، فكم مِنَّا يحتاجُ لماء حُبٍّ تروي أرض يَأسه القاحِلَة لتُنبت حياةً تقهر ألف مرَض»، والبعض في عينيه ابتسامة مُشجِّعة «أن أقبِل ولا تخَف، ستحيا معها حياةً لم تعهدها من قبل»، والبعض أخفى عنِّي نظراته خوفًا من إصابتي بسِهام يأسها لكن دموعهم لم تخفِ عنِّي شيئًا، وحينما نظرتُ للممرِّضات وجدتهُنَّ يُلقين أسهُم نظراتهن المُعاتِبة تجاهي حتى تقدَّمتْ إحداهن وقامتْ بعملٍ غريبٍ**!**

تقدَّمتْ خطوتين ثم بدأت تُصفِّق في هدوءٍ أخذ يرتفع تدريجيًا حتى تبعتها الأخريات تترا، لم أشعُر بذلك الوهج بقلبي من قبل، وهجٌ أنار فِجاج قلبي المُعتمة.

وفي تتابع وبخطوةٍ جديدةٍ غير مُرتّب لها، وقفَ المرضى في شكلٍ نصف دائري وهم يبتسمون في فرحةٍ شديدةٍ، بينما

دموع البعض تتساقط في تأثُّرٍ وقد تشابكت أياديهم ثم قاموا برفعها لأعلى في حماسٍ وتفاؤل وفي تشجيع لنا.. حينها لم أجد ما أقوله سوى أنني أمسكتُ بيد « همس » في حُبٍّ بدأتْ شَمسُه تسطع في الآفاق وأنا أنظُر إلى الممرضات اللاتي اجتمعن أمامنا وهُنَّ مستمرات في التصفيق بشكلٍ حماسي بثَّ فيّ روح قد تناسيتُها منذ فترة.. روح الأمل، ثم نظرتُ إلى « همس » أتأمَّلها بفرحةٍ وأعِدُها بعدم الفراق، وبدأنا بالفعل الطريق...

أتعلَم؟! لم تغِب عني هذه الذكرى أبدًا رغم أني أسمعهُم دومًا يقولون ويُردِّدون:

- جدَّنا العزيز يهذِي بعدما أصابه داءُ النسيان!

الأمر لا يشغلني مُطلقًا يا بني.

دعني أُكمل لك القصة...

لقد رُزقتُ منها بطفلتين تحملان جمال أمَّهما، وغلامٍ أصبح رجُلًا رشيدًا، لقد رأيتُ أحفادي جميعًا، رأيتُكم جميعًا يا بُني وحضرت عُرسكم، بل ورأيتُ بعض أبنائكم، أنا لا أحمل من دنياي سوى تلك الذكرى العبقَة التي تحمِل عبقَ وسحر جدَّتكم البتُول، والتي ستظل تُرافقني كظِلِّي في رحلتي الطويلة بتلكم

الحياة الدنيا حتى الممات، وحتى ألقاها تنتظرني يومًا ما هناك.





عالم القلم سرمدي وساحر للغاية كفضاء شاسع نجوب مجراته بلا انقطاع، لكن الميزة فيه أنه بلا معايير تضبط حدودية المكان، أو الزمان أو ..

أو العقل!

رحلتنا الأولى ستكون مميزة وفريدة، سنقطع خلالها مسافات متقاربة، لنزورَ سويًا أربعة عشر كوكبًا مختلفًا، ما بين خيال ممتع وواقع ملموس، فيهم من التشويق والإثارة ما يكفينا لنجدد طاقاتنا.

حسنًا .. ها قد أشارت عقارب ساعة الزمن لتمام منتصف الليل، ستنطلق الرحلة على الفور، اشحذوا حواسكم فضلًا، اربطوا أحزمة عقولكم و ..

ولننطلق.

COVER DESIGN BY AHMED FARAG





